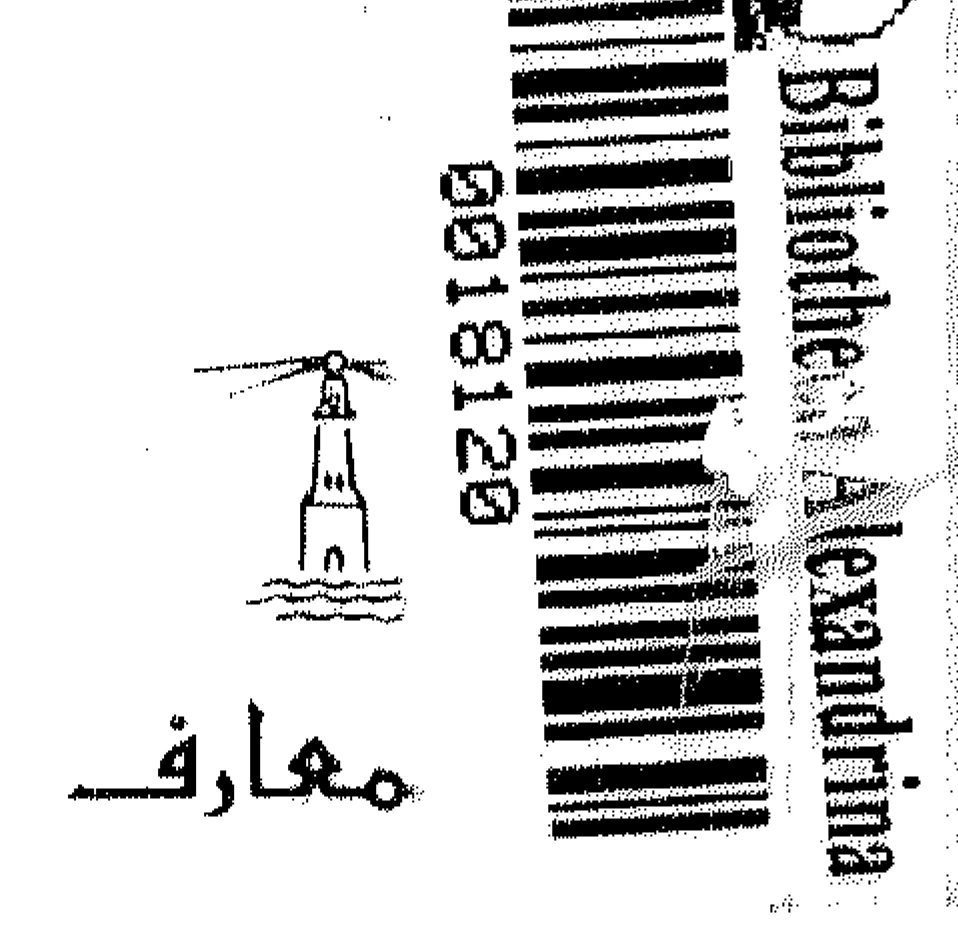
أولادنا

في مهب الريح

بقلم : عادل الغضبان



فى مَهَبِّ الرّيح

أولادنا

٢٢

في مهب الريح

بقلم : عادل الغضبان

عن : جان دجريف

الطبعة الخامسة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.



... شباب الأغنياء ال...
فذلك اليختُ كان ...
شاطئ ...

١

طلعَ البدرُ وهو تمامٌ يختال فى سمائه ، ويرسلُ أشعته الفضية إلى صفحة البحر ، ويغمرُ الشاطئ وقِممَ التِّلال الجاثمة على بُعْدٍ منه ، بغلالةٍ من نوره الأبيض الجميل ، فأمْتَعَ العينَ والفؤادَ بمنظرٍ ساحرٍ خلّابٍ.

كان ذلك فى بُقْعةٍ من بِقاعِ البحر الأبيض المتوسط ، على مَقْرُبةٍ من مدينةٍ صغيرةٍ جميلةٍ تسمَّى « كان » . وكانت منارةُ الشاطئ ترسلُ هى أيضاً شعاعها الجوّالَ ، فتقع خيوطه الذهبية على الشَّبيكة الفضية التى بَسَطَها البدرُ ، وزركَشَتْها أضواءُ المنارة بمختلف الصُّوَر والرسوم .

واشتركتْ نوافذُ المنازل القائمة قربَ الشاطئ ، فى تكملة الصُّورة النورانية ، بما كان ينبعثُ منها من أضواء متألِّقة ، كأنَّها النُّجوم المنيرة ، فى لوحٍ

امتدّتْ رُقْعتُه بين صفحة السماء وصفحات الأرض والبحر .

وأقبل على زاويةٍ من زوايا الشاطئ يَخْتٌ صغيرٌ مبسوطُ الشّراع ، فوقف فيها ، وألقى المِرْساة ، وكان على ظهر اليخت بحارٌ يديرُ الدفّة ، وشابٌّ استلقى إلى جواره يمتّعُ ناظريه بجمال السماء ، وشابٌّ آخر استندَ إلى حاجزِ السفينةِ ، يُحَدِّق فى صفحات الماء المتموّجة المتكسّرة ، فالتفتَ فجأة يخاطب الشابَّ المنطرحَ إلى ظهر اليخت وقال له :

— « ها نحنُ أولاءِ قد وصلنا يا

فنهض « بطرس » قليلاً وقال :

— « كم السّاعة الآن ؟ » فقال « جاك » رفيقه الذى بدا

— « إنّها الساعة التاسعة . . . والمطعم الذى أريد أن أصْحبَك إليه يُقْفِل أبوابه فى الساعة الحاديةَ عشرةَ ، فهيّا أسرع إذا شئتَ أن تَنْعمَ بلذيذ المأكل والمشْرَب » .

وسار « جاك » و « بطرس » كلٌّ إلى مخدعه ليستبدلَ بملابس البحر ملابسَ المدينة .

كان هذا اليختُ ملْكَ الفتى « جاك » ، وهو شابٌّ رياضيٌّ بهىُّ الطّلْعة ، ممشوقُ القامة مفتولُ العضلات ، تلوحُ على قسمات وجهه ملامحُ القوّة والشباب النّضير ، وكان يَنْعَمُ بثراء أبيه الواسع العَرِيض ، يُنْفِقُ منه عن سعة ، ويقضى أوقاته مُتَمتّعاً بمباهج الحياة ، ما بين أسْفَار واشتراكِ

فى مسابقات رياضيّة ، ولم يكن — وقد بلغ السادسة والعشرين من عمره — يزاول عملاً من الأعمال ، فاجتمع له الفراغ والشباب والغنى ، وشغل بهذه النعم الثلاث عن أىّ عمل أو مشغلة أخرى ، شأن العديد الأكبر من أبناء الكبراء الأثرياء .

على أنه مع ميله إلى اللهو والمرح ، ورغبته عن العمل ، كان يتحلّى بأخلاق كريمة ، وسريرة صافية ، قلّ أن يتحلّى بها من كان على شاكلته من الشباب الأغنياء العاطلين .

فذلك اليخت كان بعض دواعى لهوه ، يتنقّل به من شاطئ إلى شاطئ ، ومن ثغر إلى آخر من ثغور البحر ، وكثيراً ما صحب معه فى رحلاته ونزهاته صديقه « بطرس » أو سواه من الأصدقاء ، حينما تسمح لهم أعمالهم بالتنزّه والمرح .

ولما نزل « جاك » إلى مخدعه من اليخت ليغيّر ملابسه ، رغبت نفسه فى التدخين فعمد إلى غليونه وحشاه بالتبغ ، وفتح علبة عيدان الثقاب ، فما وجد فيها إلا عوداً واحداً ، فأخرج من جيبه رسالة قديمة مطويّة فيه ، ومزّق نصف صفحتها ، وصنع منه لفافة أشعلها بعود الثقاب الوحيد ، ثم أشعل بلهيبها التبغ فى الغليون ، وأخذ يدخّن مسروراً .

ووقع نظره على النصف الثانى من الرسالة فقرأ فيه ما يلى :

« ... يخيّل إلىّ أنك لن تحتاج يوماً إلى كسب رزقك من عملك ، ولكن أمنيّتى القصوى فى الحياة هى أن أراك ناهضاً بعمل من الأعمال ،

ولا تنسَ أن الثروة التي نتمتّع بها كلانا إنما هي نتيجة جهاد شاقٍّ طويلٍ مستمرّ، ولا أكذبُ الله أنك لم تسبِّب لي قطّ ما يحملني على الشكوى من سلوكك وأخلاقك، غير أنه يُسعدني كل الإسعاد أن تلبِّيَ نداءَ الواجب، وتختار لك حرفةً تحترفُها في الحياة، ونصيحتي لك أن تُتمِّمَ دراسةَ الحقوق، ثم تُعِدّ الدكتوريّة فيها وتنخرط في سلْكِ المحامين.

وإن كنتَ تميلُ إلى مهنةٍ أخرى فأنت وشأنك، ولكن عجِّل يا ولدي ولا تتوانَ، فقد أشرفتَ على السادسة والعشرين، ومن الضَّرَرِ البيّن أن يكونَ الإنسانُ عاطلاً من العمل في مثل هذه السنّ. واسلمْ لأبيك الذي يحبُّك

ريمون أفريل »

قلّب « جاك » الورقة في يديه وقال يخاطبُ نفسه :

— « أجلْ... عليّ أن أختارَ المحاماةَ مهنةً لي ... لو أنّني استجبتُ لميلي وهوايَ منذ سنواتٍ مضَتْ، لاخترتُ البحريّة، ولكن لا بأس... لا بأس . . . »

فمزّق الرسالة قطعاً صغيرة وصَعِدَ إلى ظهر اليَخْت، ورمى بتلك القطع في البحر. وكان صديقه «بطرس» قد لحقَ به فهمّ الفتَيان بالنُّزول من اليخت إلى المدينة، فطرق مَسْمَعَهما صوتُ تجديف، فالتفتا إلى جهة الصّوت، فرأيا « أرديسون » بحّار اليخت عائداً إليه في زورق من

الزّوارق ، ومعه عدد من الصحف وبعض المؤن من الزاد قد يحتاجون إليها غداً وبعد غد لو استأنفوا المسيرَ في الصّباح ، فشكره « جاك » وطلب إليه أن يضعَ الصُّحف في مخدعه حتى يطالعَها هو وصديقه عند عودتِهما من المدينة .

واستقلّ الصّديقان الزّورق وسارا به إلى الشاطئ ، ومشيا توّاً بعد ذلك إلى المطعم الذي يثقُ « جاك » بجودةِ طعامه وشرابه ، فأكلا هنيئاً وشربا مريئاً ، ثم جالا في بعض أنحاء المدينة ، وعرّجا على بعض مقاهيها ومشاربها ، وعادا إلى اليخت قربَ منتصف الليل .

ودهش « جاك » لما رأى البحّار « أرديسون » ساهراً ينتظرهما فابتدرَه قائلاً :

— « أحلا لك يا "أرديسون" السهر تمتّعاً بجمال الليل وسكونه أم شغلتْك بي الشّواغل فحرمتَ نفسك الرُّقاد والرّاحة انتظاراً لأوبتي ؟ أما زلتَ تعدُّني الطفلَ الذي ربّيته وعرفته ؟ »

وكان هذا البحّار على ما ذكره « جاك » وفاءً وولاءً ومحبةً وإخلاصاً له ، فقد عرفه صغيراً ، ورعاه يافعاً ، وسهر عليه شابّاً ، وكان من بين الرّجال الذين التحقوا بخدمة والده أكثرهم برّاً به ومحبةً له ، فاختاره «جاك» بحاراً لسفينته منذ اشتراها ، ولا سيما أنه بحّارٌ قديم .

فأجابَ الرّجل عن سؤالِ « جاك » وقال :

— « انتظرتك يا سيدى لأسلمك برقيةً ورسالةً تلقيتهما فى غيابك ، لعل فيهما أمراً عاجلاً » .

ومدّ الرجلُ يده بالبرقية والرسالة ، فتناولهما منه « جاك » ونزل هو وصديقه إلى مخدعه ليطالعا معاً الصحف التى كان « أرديسون » قد جاءهما بها .

وجلس الصديقان كلٌّ إلى مقعد وثير حول المنضدة ، وأخذ «بطرس» صحيفةً من الصحف وبدأ يطالعها ، فى حين فضّ « جاك » غلاف البرقية وقرأها بلمحة عين ، ثم صاح صيحةً مدويةً أليمة، فهرع إليه صديقه مستعلماً مستفسراً ، فوضع « جاك » البرقية على المنضدة وقال والحزن يقطّع نياط قلبه :

— « لقد مات أبى يا " بطرس " ! »

ثم عمد إلى الرسالة ففضّها وقرأها وقدّمها إلى صديقه ، وقال وهو يرتجف من رأسه إلى أخمص قدميه :

— « خذ واقرأ ! »

وكانت الرسالةُ من أمين سرّ والده وقد جاء فيها :

« عزيزى السيد " جاك " :

لستُ أدرى كيف أستهل رسالتى إليك ، فنحن جميعاً فى همٍّ مقعدٍ مقيم ، وما من شكّ فى أنك قد تسلّمت البرقيةَ ووقفتَ على النبأ الذى



يقصمُ الظهور ، ولكن الكارثةَ أفدحُ خطباً مما يُظَنّ ، فوالدك قد انتحر ، وأخشى ما أخشاه أن تكون أعمالُ مصرفه مشوبةً بالظنون والرِّيَب . . . »

فقرأ « بطرس » الرسالة كلها قراءةً عَجْلَى ، واضطرب لبعض عباراتها من مثل « فالودائع المعهود إليه فيها لا أثرَ لها .. . » أو مثل « وقد انتهى إلىَّ أن هناك أعمالاً قام بها ولا تخلو من التَّزْوير والتَّدْليس ... »

فصاح « بطرس » قائلاً :

ـــ « وارحمتاهُ لك يا " جاك " ! » فقال « جاك » جازعاً حزيناً :

ـــ « وما العمل ؟ ! وما العمل ؟ ! » فقال « بطرس » بعد أن نظر إلى ساعته :

ـــ « عليك أن تستقلَّ القطار الذى يبرحُ المدينة بعدَ نصفِ ساعة إلى "باريس"، ويصل بك إلى مدينة "ليون" فى الساعة الرابعة من مساء غد، فعرِّج هناك على والدى ، فمثل هذه الأمور تحتاج إلى رأى محامٍ خبير قدير مثله ... أمَّا اليخت فلا تكترثْ لشأنه ، فسوف أسيرُ به إلى مدينة " نيس " معتمداً فى ذلك على مساعدة " أرديسون " ثم ألحق بك إلى " باريس " فهيّا أسرع فليس فى الوقت سعة . . . »

وخفَّ الصديقان إلى محطة سكة الحديد وارتمى « جاك » إلى مقعده من المركبة ، فصفر القطار وبدأ يتحرك ، فودّع « بطرس » صديقه وشدَّ على يده مواسياً مشجعاً ، وبقى واقفاً على رصيف المحطة حتى توارى القطارُ عن الأنظارِ ، فعاد إلى اليخت وهو يرثى لحال صديقه، ويُكْبِرُ

هذه النكبة التي نكبَهُ بها الدهر ، في غمضة عين انقلب « جاك » الفتى الثرىّ إلى شابّ فقير مُدقع ، لا عملَ له ولا حرفة يكسبُ منها رزقه .

لم يعرّج « جاك » على والد صديقه « بطرس » في مدينة « ليون » بل تابع سفره إلى « باريس » ليُلمّ سريعاً بأخبار النكبة وأسبابها ، وليقف على الحواشي منها والذيول ، فعلم أن « البارون أفريل » والده قد استسلم في الحقبة الأخيرة إلى المضاربة ، وقام بأعمال تُعَد خيانةً للأمانة .

وعرضت الصُّحف للحادث في أوّل الأمر بكلمات مهذّبة لا تخلُو من التلميح والتورية ، ثم أفاضت فيه علانيةً ، فانتشرت الفضيحةُ في الأندية والمجالس وحلقات الأعمال ، وتناقلتها الألسنةُ والشفاه .

وكان والده حتى يوم انتحاره يتمتّع بسُمْعَة طيّبة في جميع الأوساط والبيئات ، لما أثر عنه من كفاية في الشؤون الماليّة ، وغِنًى واسع ، وأخلاق كريمة . فكان عملاؤه يفدون إلى مصرفه ، ويستودعونه أموالهم وهم واثقون كلّ الثقة بمقدرته واستقامته ، غير أن مُضَارَبَاته قد أتتْ على جميع تلك الودائع وجعلتها أثراً بعد عَيْن .

وبدا للخبراء الذين انتدبتهم المحكمة لمراجعة حسابات المصرف ، أن ثمّةَ كثيراً من الأخطاء في التدوين والتسْجيل ، ثم تكشفتْ لهم تلك الأخطاء يوماً بعد يوم أنها طرائقُ للنصب والاحتيال .

وعرف هؤلاء الخبراء مما فحصوه وراجعوه من أوراق ووثائق ، أن « البارون أفريل » كان قد مُنِيَ بخسارة فادحة ، في إفلاس مصرف من

المصارف الأمريكية ، كان له فيه مبالغ طائلة ، فحاول أن يسدّ ذلك العجز بوسائل شتّى فما استطاع ، فعمد إلى المضاربة مجازفاً بثروته الخاصة ، فابتلعتها المضاربة ، فاستعان بما لديه من ودائع الناس ، فذهبت هذه أيضاً هباءً منثوراً .

وضاقت الدنيا فى عينيه ، فمال إلى المسكرات يواسى بها نفسه ، ولكنّها كانت القاضيةَ عليه .

وما برحت هذه حاله حتى علم عميلٌ من عملائه ، أن الأوراق المالية التى استودعه إياها قد رهنها « أڤريل » لدى مصرف من المصارف ، ضماناً لقرض اقترضه منه ، فأبلغ العميل شكواه إلى النيابة فأمرت بالتحقيق.

وأيقن البارون أن أمره سينفضح فذهب إلى بائعٍ من باعة السِّلاح ، واشترى منه مسدّساً وعاد به إلى مكتبه ، وعكف على زجاجة خمرٍ لديه فأفرغها كلها فى جَوْفه ، ثم صوّبَ مسدسه إلى أحد صدغيه ، وشدّ الزناد فخر صريعاً مهشّم الدِّماغ .

واستبان للمحقِّقين أن القتيل كان قد ألّف ثلاثَ شركات وهميّة تقوم كلّها على النَّصْب والاحتيال ، ولا سيما الشركة الأخيرة التى زعم أنها لاستغلال مناجم كبريت فى « إسلندة » وقصّة هذه الشركة أن البارون لمّا نال منه الإرهاق كلّ مَنَال ، استمع لنصيحة طبيبه ، ورحل يرتاح ويستجمّ فى شاطئ من شواطئ « نرمنديا » فعرف هناك رُبّاناً عجوزاً من ربابنة السُّفُن ، حدّثه عن مناجم كبريت زارها فى « إسلندة » وأخبره

أن الطريقةَ التى يستعملها أهل « إسلندة » فى استخراج الكبريت طريقةٌ بدائيّة ، فى حين أن تلك المناجمَ لو أحْسِنَ العملُ فيها لدرّت أرباحاً طائلة . . .

حفل البارون بما سمع ، ودارت بخَلَدِه فكرة معينة ، فلمْ يكد يعودُ إلى « باريس » حتى اشترى صحراء واسعة من صحارى « إسلندة » الجديبة الماحِلة ، ثم ألّفَ شركة خاصّة باستغلال مناجم الكبريت فيها ، وطرح أسهمها فى الأسواق فكان ذلك الربان أول المكتتبين فاكتتب بخمسين ألف فرنك كانت كلّ ما ادّخره فى الحياة .

وحينما طارت أنباء الفضيحة إلى أنحاء البلاد ، هُرِعَ الربان العجوز إلى « باريس » لينقِذَ من ثروته ما يمكن إنقاذه ، فحزّ فى صدره أن يجد ذخيرة العمر قد ذهبت بدداً ، فما شَفِق به أحد ممن شكا إليهم حاله إلا الفتى « جاك » ، فقد عزّت عليه حالُ الرجل ، ولكن لا حَوْل له ولا طَوْل فى ردّ المأساة .

وبذل المحقّقون وافرَ الجهد حتى عثروا على الرجل الذى ابتاع منه البارون تلك الصحراء القاحلة فى « إسلندة » فعلموا منه أنه باع تلك الصحراء بخمسة آلاف فرنك ليس إلاّ ، وأنه صاحب سفن يتّخِذها لصيد الأسماك فى تلك البِقاع ، ولما سُئِل كيف حصل على تلك الأرض قال إن الحكومة الإسلندية أقطعتْه إياها فضلةً عن مزرعةٍ اشتراها بالقرب منها ، وإن فيها صخوراً تهديه رؤيتها إلى السواحل الأمينة .

سمع الرّبان العجوز تلك القصّة فازداد حزناً ، وعاد إلى موطنه ، وما لَبِثَ أن مات فيه غمّاً تاركاً ابنةً وحيدة ستضطرها قسوةُ الدهر إلى التماس الرزق من جهد النفس وعَرَق الجبين .

شقّ على « جاك » أن يعلم بمصير ذلك الربان العجوز ، ولكن أكان هو أحسن حالاً من تلك الابنة التى خلّفها ضحيّة والده ؟ ماذا يعملُ الآن فى الحياة ؟ وأىّ عملٍ يزاول وليس فى يده شهادة عليا تعينه على العمل مدرِّساً فى إحدى المدارس؟ وكيف يواجهُ الحياةَ بعد إذْ كان قد تَعَوّد البذخ والتَّرَف ورفاهة العيش؟ كلُّ ما يملك من أسباب النضال فى الحياة صحة جيدة وجسم رياضى ينبضُ بالقوة والسلامة . . .

خرج « جاك » ذات يومٍ من غرفة قاضى التحقيق فى صحبة البحّار الذى اشترى منه أبوه الصحراء ، فتأبّط هذا ذراعه ، وأخذ يعزّيه ويواسيه ويقول له :

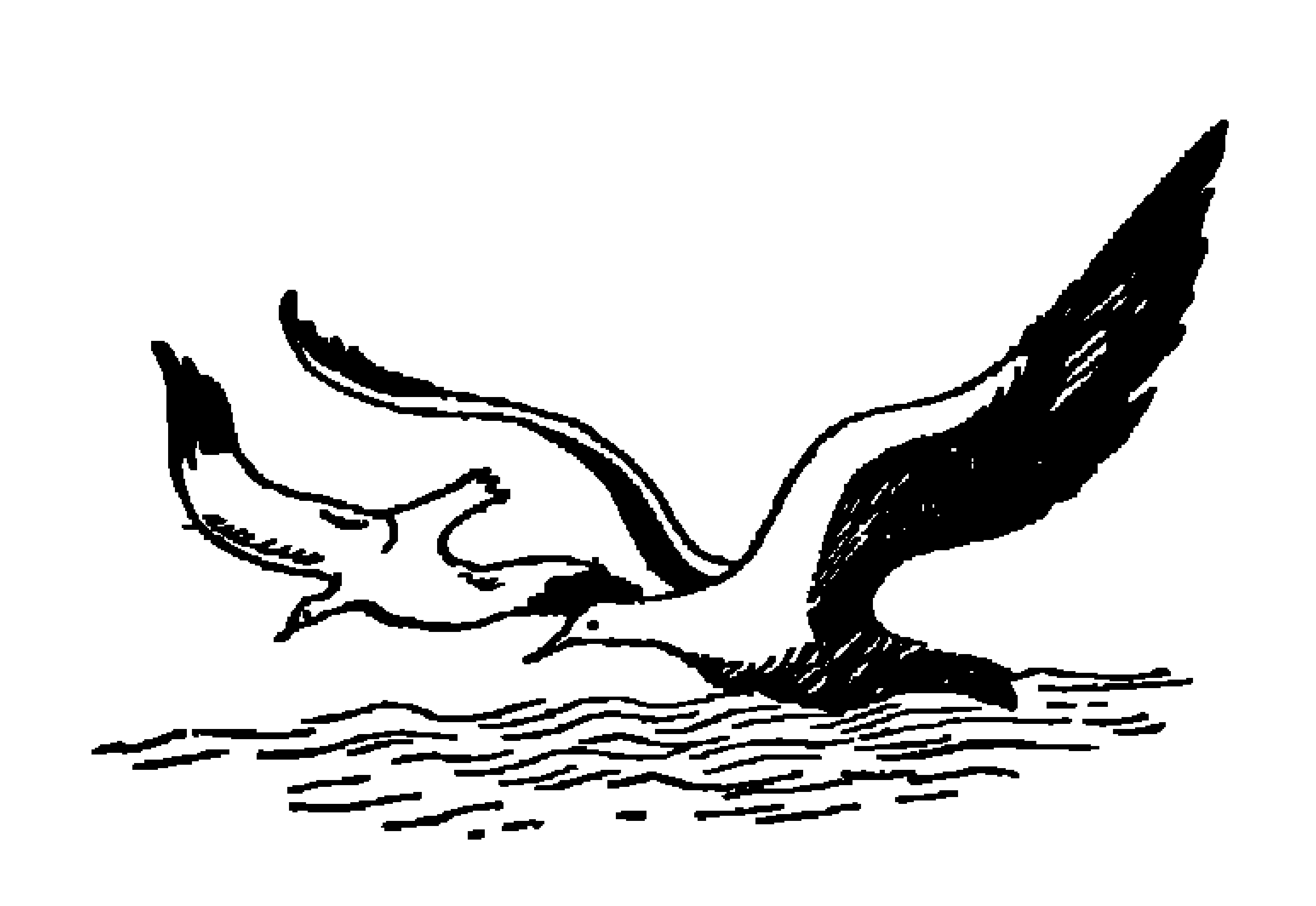
— « هوّن عليك يا فتى ، فلستَ أنت المسئول عن كل ذلك ... تعال نتناول طعامَ الغداء معاً » .

فقبل « جاك » الدّعوة ، ولما فرغا من تناول الطعام قال له البحّار واسمه « هارڤر » :

— « إن لك عندى عملاً تستطيع أن تقوم به ، إنه عمل كتابىّ فى المكتب الذى أملكه ويقوم على تدوين دَخْلى وخَرْجى ، فإن ساءك مثلُ

هذا العمل ورأيتَ من نفسك القوة على تحمُّلِ أهوال البحار ، فانخرطْ في زُمْرة بحارتي ، واقض عدّة سنوات متمرّناً على صيد السمك وقيادة السفن ، فإذا نجحت في ذلك نصّبتُك ربّانا على إحدى سفني ، ثم جعلتُك شريكاً لي ، فإني وحيدٌ في الحياة ، ومحتاجٌ إلى عقلِ فتيٍ ذكيّ يعاونني ، ولكني لا أخفي عنك أن البداية ستكون شاقة عسيرة ، فهل ترضى بما أعرضه عليك ؟ »

فرضي « جاك » بعرض الرجل ، فشرب كلٌّ نخبَ الآخر دلالةً على الرِّضى والقَبُول .





٢

قضى « جاك » خمسةَ عشرَ يوماً نظّمَ فيها شؤونه ، وجمع قليلاً من المال فى جيبه ، ولحق بالبحّار « هارڤر » فى أحد الثغور وذهب يقابله فى المكتب الذى اتخذه مقرًّا له فى المدينة .

فاستقبله « هارڤر » مسروراً وقال له :

— « يسرُّنى أن أراك يا بنى ، وسوف تركب البحر غداً ، فهل لديك الملابس الخاصة بالبحار ؟ !! » فقال « جاك » :

— « نعم لدىَّ كلُّ ما يلزمنى » . .

وكان « جاك » قبل أن يبيع يخته ، قد أرسل إلى « أرديسون »

يطلب منه أن يبعثَ إليه بجميع ملابسه التى تركها فى اليخت ، فلما رآها « هارفِر » قال :

– « إنَّها ملابسُ جيدة وإن مالت إلى الأناقة والتَّرف ، ولا تحسبَنَّ أنها ستظلُّ أنيقةً فخمة ، فالعمل سيمزِّقها ويلطِّخها بالوسخ ، ولكن لا بأس ... أنا الآن مشغولٌ بتعبئة الأسماك ، فاقض ساعةً أو بعض ساعة جائلاً فى أرجاء المدينة ، ثم اذهب إلى السفينة التى ستركبها وتعمل فيها ، وتعرَّفْ إلى مَنْ فيها ، وعُدْ إلىّ ريثما أنتهى من عملى . . . سترى السفينة وستعجبك . . . إن اسمها " ديك الشمال " » .

وقهقه الرجلُ ضاحكاً ، ودفع بالفتى « جاك » إلى الباب ، فاجتازه وذهب يطوفُ بأنحاء المدينة ، حتى إذا ملّ من الطواف ، مضى قُدُماً إلى الميناء وأجال طرفه فى السفن الراسية فيه ، فعثر على « ديك الشمال » فانقبضت نفسه لمرآى تلك السفينة العتيقة ، بل لمرآى ذلك الديك المجرد من ريشه ، فما كان يبدو على مظهر السفينة إلا الحقارة والاتِّضاع ، فضلاً عن رائحة السمك المنبعثة منها .

صَعِد « جاك » إليها فلقيه فيها أوّل من لقيه ، غلامٌ يعمل خادماً فيها ، ويرتدى أحقر الأسمال ، وكان يدخِّن التبغ فى غليونه ويبصقُ من حينٍ إلى آخر على سطح السفينة ، فاشمأزّ « جاك » وصعب عليه أن يقضى عدّة ساعات فى مثل هذه الحقارة والقذارة ، فوزن الأمر فى نفسه وبدا له البقاء فى تلك السفينة ضَرْباً من المحال ، فاستدار على عقبيه ،

وهمّ بالعودة من حيث أتى معتزماً فى قرارة نفسه أن يطلب من « هارفر » أن يعهد إليه فى العمل الكتابى الذى كان قد عرضه عليه أولاً ، فلمحه الغلام وخفّ إليه مسرعاً فقال له « جاك » :

– « هل الربّان هنا ؟ » فقال الغلام :

– « كلا » . فقال « جاك » :

– « ومساعده أهو هنا ؟ » فقال الغلام مستغرباً :

– « ماذا تقول ؟ » فقال « جاك » :

– « أسأل عن مساعد الربان أهو هنا ؟ » فقال الغلام وهو مستمرٌ فى التّدخين :

– « ليس على السفينة هذه مساعد رُبّان » .

فضاق « جاك » بوقاحة الغلام ولهجته الجافة ، وهو الذى تعوّد أن يأمر فيُطاع بلا تردد فقال متضايقاً :

– « هل فى السفينة مَنْ ينوب مَناب الرُّبّان ؟ »

فلم يجب الغلام عن السؤال بل مشى خطوتين إلى داخل السفينة وصاح :

– « يا يوسف ! هنا رجل يسأل عنك » .

فدوّت من داخل السفينة زمجرةٌ أعقبها وقعُ أقدام على السلّم الداخلى للسفينة ، ولاحت على الأثر فوق حاجزى السلم كفّان غليظتان موشومتان

بالشَّعر ، وبدا بعدهما رأسٌ ضخمٌ كرأس الوحوش ما عَتَّم صاحبه أن وصل إلى سطح السفينة وخطا فيه إلى « جاك » خطوات ثقيلة .

كان القادم أقصرَ قامةً من « جاك » وأضخمَ مَنْكِباً ، وأشبه بالثيران منه ببنى الإنسان ، فقال يخاطب « جاك » وهو ينظر إليه نظرات وحشيَّة مرتابة :

ـ « أأنتَ مَنْ يسأل عنى ؟ » فقال « جاك » :

ـ « أريدُ أن أحدّث رُبَّان السفينة أو مَنْ ينوبُ عنه » .

فقطَّبَ الرجل حاجبيه الأصفرين وقال :

ـ « أنا رئيس الصيد فماذا تريد ؟ » فقال « جاك » :

ـ « إنى قادمٌ من قِبَل السيد "هارفر" وسأبحر معكم صباح غد » .

فبصَقَ الرجل على سطح السفينة وقال :

ـ « لسنا على هذه السفينة فى حاجة إلى فتيان "باريس" يُعَرْقلون أعمالنا . إن سفينتنا ليست يخْتاً للنزهة ... حسْبُ الغرباء الأجانب أنهم يسكنون منازلنا . . . قل هذا للسيد " هارفر " » .

فقال « جاك » بلهجةٍ هادئةٍ مؤدبة :

ـ « أنا لا أبحِر معكم سائحاً يلتمس المتْعة والنزهة ، بل بحاراً يقاسمكم العمل » .

فضحك الرجلُ ضحكة وقحة ، واتَّقدت عيناه ببريق السخرية وقال :

– « لا تهزأ بى أيها الأبله ! اغرب من وجهى ... لعلك أحد الصحفيين جاء يتقصى أخبارنا ... إن كذلك جلى واضح يا فتى ، فأسرع فى الانصراف وإلا أمسكت بعنقك ورميتك فى البحر ! »

فلم يحر «جاك» جواباً بل أخرج غليونه من جيبه وحشاه بالتبغ فى حين كان الغلام ينظر إليه فاغر الفم مدهوشاً ، ثم مضى « جاك » يجلس فوق بعض الأثقال وهو يقول :

– « اطمئن يا سيدى فسأخبر السيد " هارڤر " كيف تطاع أوامره على هذه السفينة . . . أما إن شئت أن ترمينى فى البحر فها أنا ذا على مقربة منك ، فنفذ وعيدك لو استطعت إلى ذلك سبيلا » .

فأخذ الرجل الوحش يقذف من فيه السباب والشتائم ، وهجم على « جاك » فاستقبل « جاك » هجمته برفع يديه ، فظن الوحش أن الفتى يهم بضربه ، فبأسرع من تردد الطرف طوق بيديه خصر « جاك » وضغط عليه ضغطاً شديداً، وحاول أن ينتزع الفتى الباريسى من مكانه .

على أن « جاك » لم يكن قد رفع يديه ليكيل الضربات للهاجم عليه ؛ وإنما رفعهما ليتخذ من خصمه موقف المصارع المدافع ، فما كاد الصياد ينهض عنه محاولا أن يقتلعه من مكانه ، حتى كان « جاك » قد وضع إحدى يديه تحت ذقن الهاجم، ومد الأخرى إلى قفا عنقه ، فأصبح رأس خصمه محصوراً بين كفيه وعرضة للضغط العنيف فكادت تزهق روح الصياد، فتألم تألماً شديداً، واضطر إلى ترك خصر الفتى لينتزع

من حول عنقه يدى « جاك » الناعمتين وكأنهما قطعتان من الحديد ، فما مكّنه «جاك» منهما ، بل انفلت منه وأخذ يسدّد إلى وجهه الضربات القوية حتى كاد فكاه يتراخيان ويندمج فكٌ بفكٍ .

تراجَع الصياد ليستجمع قُواه ويستعيد تنفُّسَه ، ونهض « جاك » ليتدارى الهجمة الثانية ، فوقف الرجلان وجهاً لوجه ، وهما يلهثان من التعب . كان « جاك » قد كسب الجولة الأولى ، ولكنه أدرك أنه مغلوبٌ لامحالة لو استمرَّ الصِّراع بينه وبين ذلك الوحش ، فشاء أن يُذْهله ويُربكه فهجم عليه هجوماً خاطفاً ، وكال له بين حاجبيه ضربةً رنَّحتْه ، ولكن سرعانَ ما استعاد الصياد قواه ، وهجم على « جاك » ممدودَ اليدين يريد أن يعصُرَ بهما عُنقه عَصْراً ، فاستعان « جاك » بحضور ذهنه وشجاعته وحِيَله الرياضية ، فأمسك بإحدى اليدين الممدودتين ولواها إلى الخلف ليًّا شديداً ، واستدار معها فى خِفَّة الطائر ، ففقد الصياد توازنه ، وسقط على وجهه إلى سطح السفينة ، فسُمِع لسقوطه دويٌّ شديد ، فسارع « جاك » إليه وثنى رُكْبتَيْه فوق ظهر الصياد العريض ، وأمسك بعنقه حتى كاد يكتم أنفاسه ، فحشْرَج الصياد طويلاً ، وارتمى برأسه إلى سطح السفينة كمن فَقَدَ الوَعْى والرُّشْد .

وكان غلامُ السفينة يشاهد ذلك الصِّراع القاتل وهو لا يُبْدى حَراكاً ، فعجب « جاك » من تلك السفينة ورجالها ، ومما يتَّصفون به من عَدَم الاكتراث ، فها هو ذا غلامٌ منهم يشهد معركةً هائلة وكأنه فى عالمٍ

آخر ، فلما رآه يقترب من جسم الصياد الممدد على أرض السفينة غير حافل ولا مبالٍ ازداد « جاك » دهشة من ذلك الخلق البارد الشبيه بجبل من جبال الثلج ، ولكنه اهتز لسماع الغلام يقول له فى غير ما جزعٍ ولا اهتمام :

— « لقد دققته دقًّا جميلاً . . . »

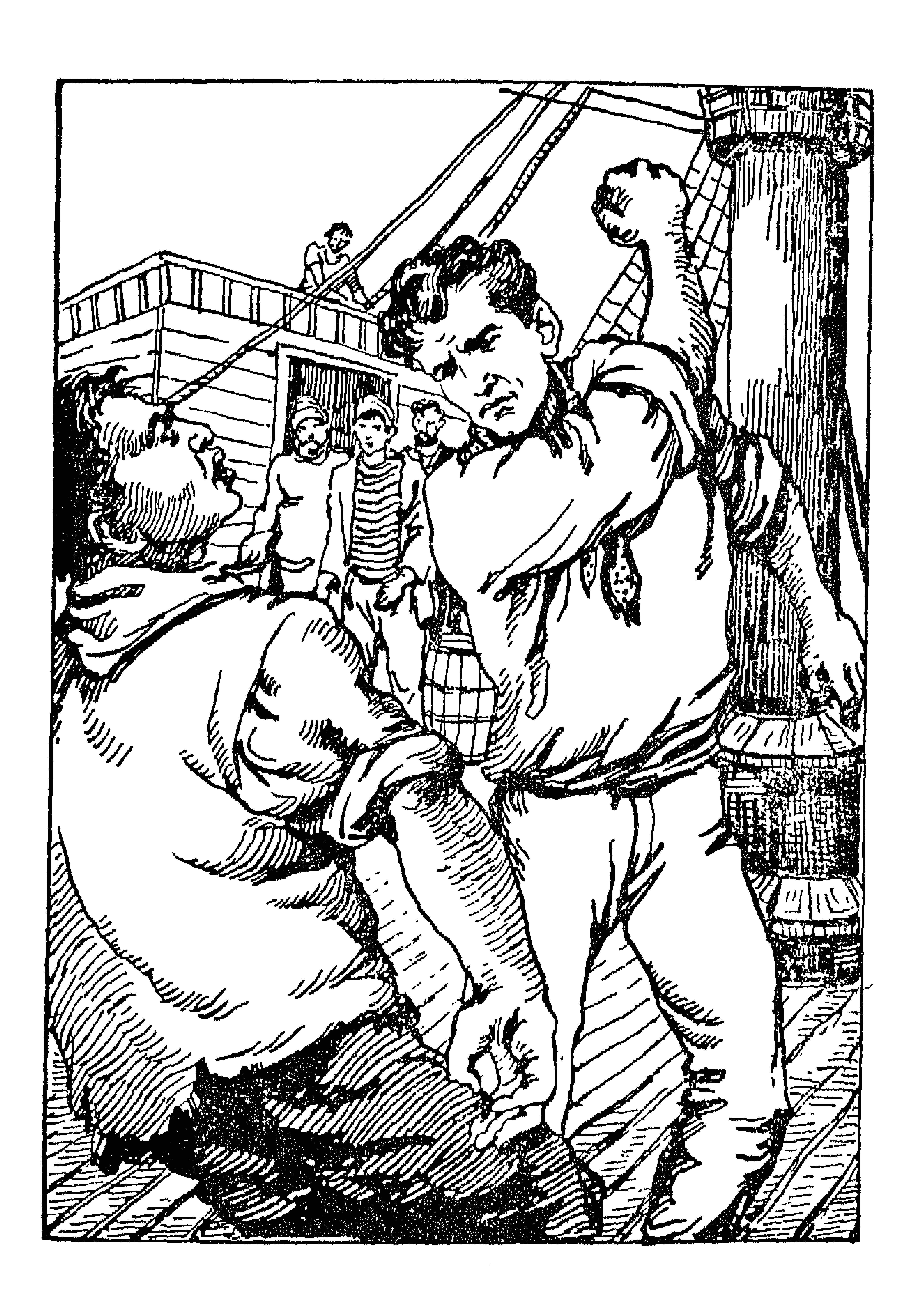
فنهض « جاك » يترنح كالشارب الثمل ، فمسح يديه المبللتين بالعرق ، وبلغ منه الهم كل مبلغ ، فود لو يطلق لعبراته العنان :

ومال الغلام على الصياد المنطرح على أرضِ السفينة ، وأداره بحيث يستلقى على ظهره ، ثم ساعده « جاك » فجرَّا ذلك الصريع إلى ناحية من السفينة ، وأجلساه مسندَيْن ظهره إلى بعض الأحمال ، ففتح الرجل عينيه ووقع نظره على « جاك » فاعتدل فى جلسته ، ومسح الدم عن فمه بظهر كفه ، وعاد ينظر إلى « جاك » وقال له :

— « عليك لعنة الأبالسة أيها الفتى ! إنك لتحسن الضرب والصراع ! »

وحاول الصياد أن يقف على قدميه ، فعانى شديد العناء فى ذلك ، فمد « جاك » له يده مساعداً فتظاهر أنه لم يرها ، ثم تحامل على نفسه فوقف ومضى إلى زاوية من السفينة ، وأخذ دلواً من خشب مربوطة بحبل ، فأدلاها إلى البحر وملأها بالماء ، ثم سحبها إليه وأخذ يغسل وجهه ورأسه ويديه .

وهدأت أعصاب « جاك » فأسِفَ على ما فعل ، وتحير فى الحكم



على أخلاق الناس فى تلك البقاع ، فقد شهد المعركة بضعة عشر نفراً من رجال السفن المجاورة ، فكانوا كغلام السفينة جامدين فى أماكنهم ، غير مكترثين لما تقع عليه أعينهم ، كأنما يشهدون أمراً غير ذى بال .

وبينا كان « جاك » يردد فى نفسه مثل تلك الخواطر ، سمع غلام السفينة يصيح مخاطباً أولئك الناس الواقفين ينظرون إليه من السفن المجاورة :

— « " يوسف منزى " رئيس الصيد عندنا تلقى درساً قاسياً » .

أما « يوسف منزى » هذا فبعد أن غسل وجهه ورأسه ويديه ، اقترب من « جاك » وقال له :

— « صح إذن ما قلت . . . فستبحر معنا غداً ، وتنخرط فى زمرة بحارة السفينة » . فقال « جاك » :

— « أجل » . فقال « يوسف منزى » :

— « احرص إذن على جلدك . . . ولسوف نعاود الكرة ونحن فى عرض البحار ، ولن أدعك تفلت من يدى » .

قال هذا وتوارى عن نظر « جاك » ذاهباً إلى بعض شأنه فى قلب السفينة .

فهز « جاك » رأسه وقال فى نفسه ، لقد كان « هارفر » على صواب حين نبهنى إلى أن البداية لن تكون فى جمال الورد والريحان ... ومضى إلى غليونه وكان قد تركه فى جانب من جوانب السفينة ، فالتقطه وأشعله

وأخذ يدخّن . . . ثم نادى الغلام وقال له بلهجة الآمر :

— « ما اسمك ؟ » فقال الغلام :

— « "جيّوم" . . . ويسمّونني في السفينة "جيّو" » . فقال « جاك » :

— « وأين ربّان السفينة ؟ » فقال الغلام :

— « إنه فى المدينة » . فقال « جاك » :

— « وهذا الذى صارعته ما اسمه ؟ » فقال الغلام :

— « اسمه : "يوسف منزى" . . » ثم قال فى صوت منخفض :

— « لا أوَدُّ أن أكون مكانك حينما نتوغّل فى عرض البحار ... هناكَ [illegible] يعد الذى حدث بينكما ... لقد غضب يوماً على بحّار من البحارة فرماه فى البحـ[illegible] كلُّ الناس تخافه وترهب شرّه . . . » فقال « جاك » هازئا : [illegible] ضيقة

— « كن مطمئنا فإنى أعرف كيف أدْفَعُ أذاه ... ومَنْ معكما أيضاً فى السفينة ؟ » فقال الغلام :

— « رجلان آخران » . فقال « جاك » :

— « وما اسم ربّان السفينة ؟ » فقال الغلام :

— « "منزى" وهو والد "يوسف منزى" وإنه ليخاف من ابنه كما يخاف من الشّيطان الرّجيم » .

رأى « جاك » أن حياته على ظهر السفينة لن تكون حياةً هادئة مستقرّة ، ولكنه تـذكّـر وعدَ « هارڤر » وكيف منّاه بأن يُصبح يوماً شريكه ، فآلى على نفسه أن يجابه الأخطار بما يملك من قوةٍ وبأسٍ وفكرٍ ، لعله يصل بعد ذلك إلى حياةِ الهدوء والاستقرار .

وانتهى « جاك » من تفكيره ، وذهب إلى السلّم الموصل إلى قلب السفينة ، وصاح بأعلى صوته :

— « يا " يوسف منزى " ! يا " يوسف " ! »

فأجابه المنادَى قائلاً :

— « ماذا تريدُ منّى أيضاً ؟ » فقال « جاك » :

— « أريدُ أن أنتهيَ إليك بكلمةٍ قصيرةٍ فتعالَ إلىّ » .

فمد « يوسف منزى » رأسه ، وتطلّع إلى « جاك » وهو واقفٌ عند فتحة السلّم فقال له « جاك » :

— « أنا راحل الآن وسأعودُ صباح غد ... وقد أحببتُ أن أنذرك بالإقلاع عمّا أنت عليه من سوء الخلق ، فإن مددتَ يدك فى المستقبل إلى أبعَدَ مما يجب ، أو رفعتَ صوتك إلى طبقةٍ لا تليق ، فسوف تندم أشدَّ الندم . . . هذه كلمتى إليك ولك أن تعودَ بعدها إلى عملك » .

فعاد « يوسف منزى » إلى حيث كان ، وغادر « جاك » السفينة إلى لقاء صاحبها « هارڤر » ولكنه عرّج فى طريقه على بائع أسلحة ،

فاشترى منه مسدساً بستين فرنكاً من الفرنكات الخمسمائة التى كانت فى جيبه .

وفى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى ، كان « جاك » يتمشّى على رصيف الميناء فى طريقه إلى السفينة « ديك الشمال » فوصل إليها بعد قليل حاملاً حقيبته ، وكان « يوسف منزى » فى تلك الأثناء مشغولاً بتنظيف مَرْأب السفينة، فى حين كان الغلام « جيّو » منهمكاً فى غسل بعض الأطباق ، فتوجّه «جاك» إلى فتْحة السلم الداخلى للسفينة ، وبدأ ينزله درجةً درجة،فتقزّزت نفسه من الرائحة القَـذِرة المتصاعدة من جوف السفينة، كما عافت عينُـه ما وقعت عليه من أقذارٍ متراكمةٍ هنا متناثرةٍ هناك .

وسار « جاك » بعد ذلك يتفقّـد مكاناً يضع فيه حقيبته وأمتعته ، فوجد غرفةً للنوم ضيّقة ، نصبت فيها أسِرّة أربعة فى كل جانب منها سرير فوقه سرير ، فطرق مسمعَه صوتُ غطيط ينبعثُ منها،ثم انقطع الغطيطُ على وقع أقدامه، فرأى وجهاً قد برز من تحت اللّحاف، فحيّاه « جاك » تحيّة الصباح ، غير أن الرجل لم يجب عن التحية بل بادر « جاك » قائلاً :

— « ماذا تريد ؟ » فقال « جاك » :

— « أين سريرى من هذه الأسِرّة » . فقال الرجل :

ـ « السّرير الذى تحت سريرى هو لغلام السفينة، والسرير الأدنى من الجانب الثانى ينام فيه ” يوسف منزى “ » .

فوضع « جاك » حقيبته فى زاويةٍ من زوايا الغرفة ، وعكف على سريره يرتّبه وينظفه ، ثم خرج من الغرفة فلمحه « يوسف منزى » فلما اقترب منه قال له :

ـ « لقد صمّمتَ مع ذلك على المجىء والإبحار معنا » . فقال « جاك » بلهجةٍ هادئة :

ـ « كما ترى . . . فعيِّنْ لى عملاً أقوم به » . فقال « يوسف منزى » :

ـ « خذ هذه الدّلو واملأها بالماء مرة بعد أخرى ، واغسل الجانب الثانى من مَرْأب السفينة » .

فصعد « جاك » إلى غرفة النوم ، وبدل ملابسه وعاد يقوم بالمهمة التى عهد فيها إليه ، واستمرَّ ساعتين ينحتُ أرض المرأب ويفركها بالفِرْجَوْن، ويغسلها بالماء ثم ينشّفها،ويصعد بالدلو إلى سطح السفينة فيرمى إلى البحر بما فيه من ماءٍ وسخ، حتى انتهى من عمله وشعر بأوصال جسمه تتمزّق كما لو وقع من قمّة جبل عال .

وكان غلامُ السفينة يساعده فى عمله، فلما فرغ منه صَعِدَ يبدل ملابسه ، وغادر هو والغلام السفينة إلى بعض الدّكاكين فاشترى فراشاً وملاءةً ،وشوكةً وسكيناً ومِلْعَقَة،وصَحْناً وكوباً من المعدن، وعاد بكل

ذلك إلى السفينة فوضعه فى خزانته .

وشعر « جاك » أن غلام السفينة قد بدأ يُسْلس له القياد فتناول الإفطار معه ثم صعدا معاً إلى سطح السفينة ليملأ رئتيه بهواء البحر النقى :

ورأى « جاك » أن سطح السفينة قَذِرٌ مُهْمَل فعاد ثانية إلى ارتداء ملابس العمل وقام هو والغلام بتنظيفه ، واشتركا بعد ذلك فى لفِّ الحبال وترتيب الأشْرِعة ، وطَرْح كل ما لا حاجة إليه . وما إن فرغا من عملهما حتى لحق بهما « يوسف منزى » ورائحة الخمر تنبعثُ من فمه ، فبصق على سطح السفينة وركل بقدمه لَفّةً من الحبال فانفردتْ ورجعَ من حيثُ أتى .

فلم يَفُه « جاك » بكلمة واحدة، ومضى إلى الحبال فجمعها وأعاد لَفَّها بنظامٍ وعناية ، ومضى يجلس فى زاويةٍ من زوايا السطح .

وما هى إلا دقائق قليلة حتى صَعِدَ « يوسف منزى » إلى السطح ثانيةً ، واتجه إلى مخدع والده وحرص فى سيره أن يركل مرة أخرى لفّة الحبال .

وجمع « جاك » الحبال وأعاد لفَّها ثم وضعها عند مدخل السلم المؤدِّى إلى قلب السفينة ، ومضى إلى قضيب من الحديد انتزعه من مكانه ، وتسلَّح به ولبث ينتظر « يوسف منزى » .

فخرج « يوسف منزى » بعد قليل من مخدع الربان ، فناداه « جاك »

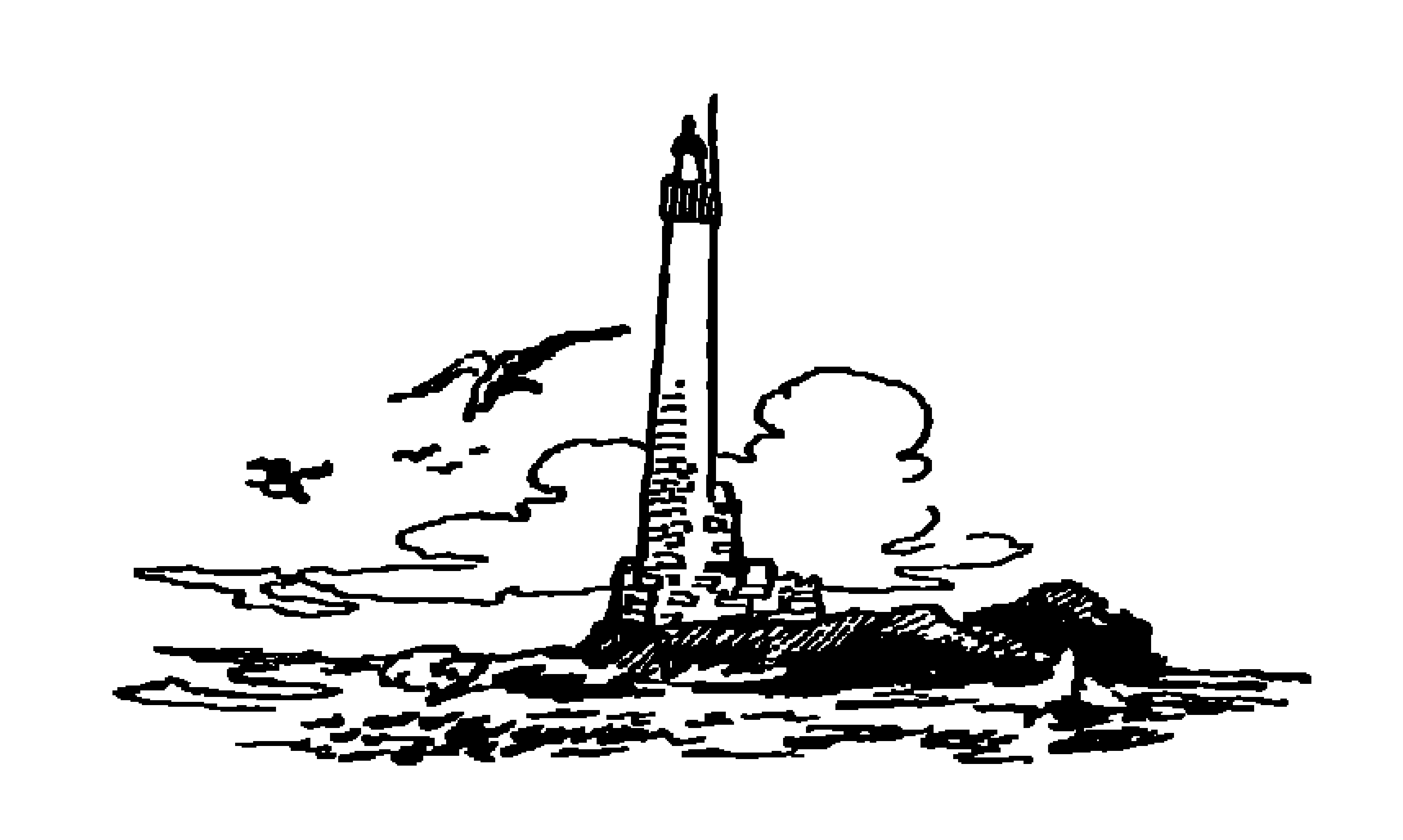
وقال له وهو يشير إلى لفَّة الحبال :

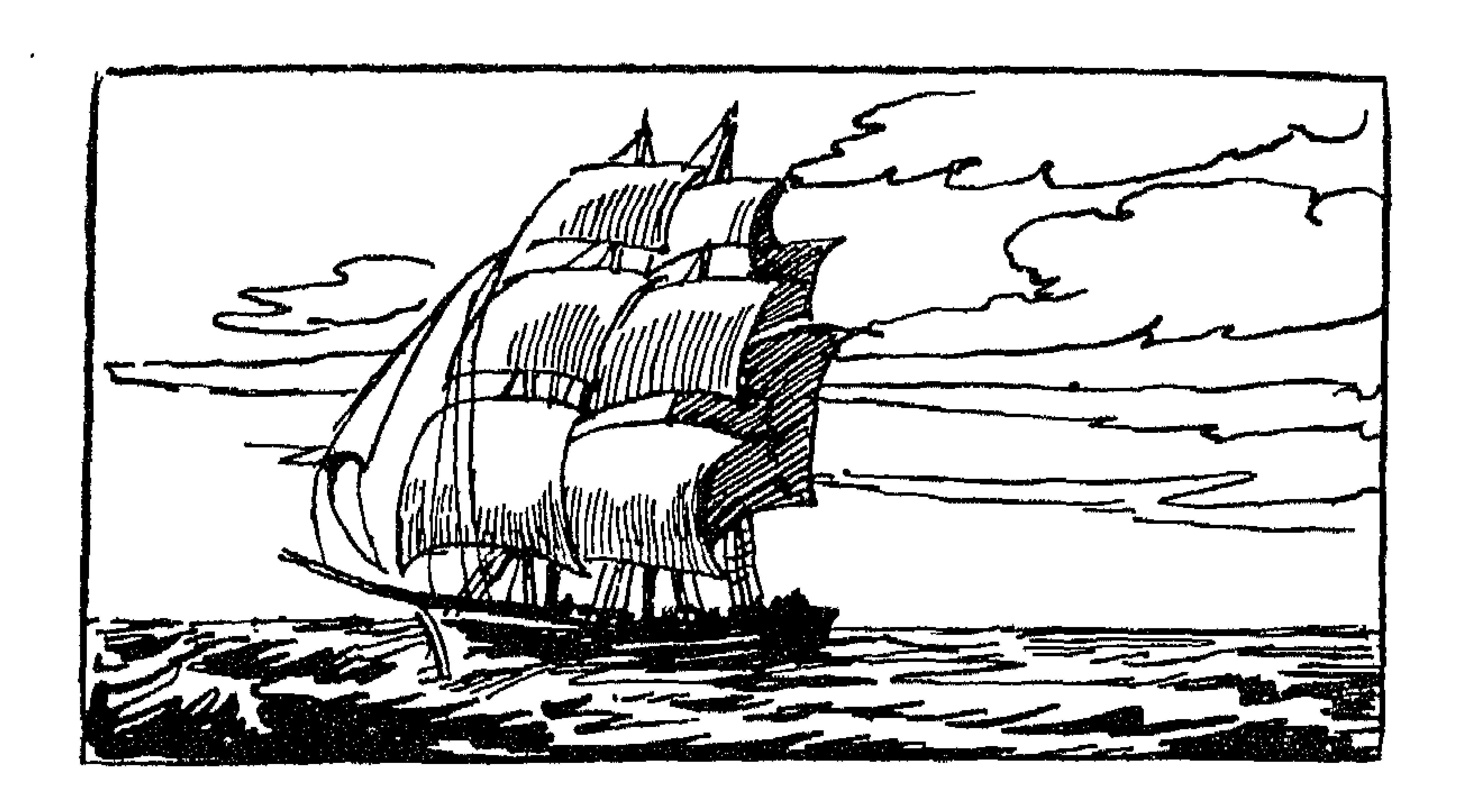
— « أترَى هذه اللفة من الحبال؟ ... فلئن والله مسَسْتَها لأؤدِّبَنَّك شرّ تأديب » .

فنظر « يوسف منزى » إلى « جاك » المرفوع القامة ، وإلى قضيبِ الحديد فى يده ، ثم إلى تلك اللفَّة من الحبال فتخطّاها ونزل السلَّم .

وهكذا كسب « جاك » الجولة الثانية

وقُبَيْل الغروب أقلعت السفينة وجرت تمخُرُ عُبابَ الماء .





٣

قُدِّرَ للرحلة أن تستمرّ أربعة أشهر ، فقضاها « جاك » صابراً مصابراً ، ولقي فيها أشدَّ أنواع العَنَت والعَناء .

ولئن كان « يوسف منزى » قد استفادَ من الدروس الأولى التي لقَّنه إياها « جاك » فأصبح لا يجازفُ باستعمال العنف والغلظة ، لقد كان جوارُه وزمالتُه مع ذلك ليس مما يرتاح إليه شاب مؤدب مهذب مثلُ « جاك » .

أما الربان « منزى » فقد كان عجوزاً يرتجف فرقاً من ابنه ، فأساء معاملة « جاك » في بدء الأمر ، ولكنه عاد إلى الحسنى عندما رأى ذلك

« الباريسى » ملماً إلماماً وافياً بشؤون الملاحة والبحر ، فاستفاد من علمه وعهد إليه فى ضبط حساب الجوّ وما إلى ذلك .

وكانت السفينة متّجهةً إلى الشمال من «إسلندة» وسائرة إلى أصْقاعٍ باردة الجو والمُناخ ، فأثر البرد فى « جاك » ، ولم يتعوّده إلا بعد فترة من بدء الرحلة ، وكان أشدّ ما يؤثر فى جسمه ونفسه ذلك الضّباب الذى ينتشر فى الجوّ ، فيلفّ فى غلالته البحر والسُّفن ، فكان كلما توارت السفينة فى طيّات الضّباب ، توقّع أن تصدمها سفينة من السفن الضخمة فتحطّمها وتبعث بها إلى أعماق المياه .

وكم من مرةٍ ندم فيها على أن آثَرَ العمل فى السفينة على العمل فى مكتب « هارڤر » ، ولكنه تمرّس بأهوال البحر بعد شهر واحد ، وأصبح ملتذّ بالتغلُّب على مصاعب البحر وأهواله ، ويسرّ كلّ السرور فى إحباطِ حيَلِ الأسماك واصطيادها . وكانت مُتعتُه الكبرى عندما ينالُ التّعبُ من أجسام زملائه ، ويأخذُ الكَرَى بمعاقد أجفانهم ، أن ينوبَ عن الربّان ويقود السفينة إلى غايتها .

انتهت الرحلة وعاد « ديك الشمال » إلى المرفأ الذى أقلع منه فتولى البحّارة تفريغ الأسماك التى اصطادوها ، أما « جاك » فلبس ملابس المدينة وكان قد هجرها مدة أربعة أشهر وخفّ سريعاً إلى لقاء « هارڤر » ، فاستقبله هذا باسماً مرحّباً وسأله قائلاً :

– « أأعجبتك الحياةُ فوقَ ظهر البِحار ؟ » فقال « جاك » :

– « إنها حياة متعبة ثقيلة ، ولكنى مع ذلك مصمِّمٌ على العودة إليها ».

فشدّ « هارڤر » على يده وقال له :

– « نِعِمَّا أيها الفتى الباسلُ الشُّجاع ... اذهب الآن وتسلَّمْ نصيبك من الرِّبح . . . إن الرحلة كانت موفَّقة سعيدة ... وسنتعشى معاً فى هذا المساء ، وعندئذ تقصّ علىَّ ما تريد » .

وفى المساء تعشّى « جاك » و « هارڤر » فى مطعم أنيق من مطاعم المدينة ، وقضيا معاً سهرةً لطيفة .

وبعد أسبوعين قام « جاك » برحلة ثانية إلى بحار « إسلندة » على نفس السفينة التى ركبها فى الرحلة الأولى ومع الزملاء أنفسهم .

وتغيَّر موقف هؤلاء الزملاء منه تغيراً شديداً ، فأصبحوا يخصونه بالمزيد من الودّ والإجلال . أما الوحش « يوسف منزى » فحاول على الرغم منه أن يتلطف هو أيضاً معه ، غير أن « جاك » ما كان ليطمئن إليه ، فقد لاحت له نظراته فى بعض الأحيان تقدَحُ بشررِ الحقد والكراهية ، فارتاب به وكان منه على حذَر .

واستيقظ « جاك » ذاتَ صباح مرتاح الجسم نشيطَ البدَن ، فصعد إلى حيثُ عجلةُ القيادة ليقوم بنوبته فى قيادة السفينة ، فأخلى له زميله المكان ، ونزل إلى قلبِ السفينة فلمح « جاك » الشِّراع المثلَّث ورآه

منبسطاً على عكس ما يجبُ أن يكون عليه .

ومرّ به « يوسف منزى » فى تلك اللحظة ، فلفت « جاك » نظره إلى الوضع المعكوس للشراع وقال :

— « من ذلك الغبيّ الذى بسط الشراع على مثل هذا الوضع ؟ »

فقال « يوسف منزى » :

— « لا بدّ أن يكون الزميل الذى نزل يستريح ...فاصْعَدْ إلى السارية وأنت الملاّحُ الماهر وابسط الشّراع البسطَ الصحيح .وسأمْسِك أنا بعجلة القيادة حتّى تعود » .

ومدّ « يوسف منزى » يده إلى عجلة القيادة فتركها له « جاك » ومشى إلى السارية . ولحظ أن حبلَ الشراع لم يكن مشدوداً . فانحنى عليه يفكُّ عُقْدته فما كاد يمسك به حتّى انقطع . فسقط الشراع فوق « جاك » ولفّه بمطاويه وسقطت السارية فى الوقت نفسه على قيد شبر من رأس « جاك » فنجا من الموت بأعجوبة . وكان لا يزال يتخبّط فى طيات الشراع ، فسمع صوت « يوسف منزى » يصيح قائلاً :

— « ماذا ؟ ماذا جرى ؟ »

فلم يفتْ « جاك » اضطراب « يوسف منزى » فقال يجيبه :

— « لقد سقطت السارية ، فأمسك بعجلة القيادة إمساكاً محكماً . فسوف أعنى بإصلاح كل هذا ... »

وخلص « جاك » من الشِّراع ، ونزل إلى قلب السفينة ليجلب منها بعض الأدوات ، فرأى الملاح الذى ناب منابه يلاعبُ غلام السفينة بالورق ، فصاح فيه مُغْضَباً :

– « أهكذا ترفعُ الأشرعة وتربط الصوارى ؟ » فقال الرجل فزعاً :

– « أسَقَطَ الشراع ؟ » فقال « جاك » :

– « نعم سقط وسقطت معه السَّارية ! » فقال الرجل :

– « لستُ أنا الذى رفع الشراع وربط السارية ، وإنما هو " يوسف منزى " ! »

فتركهما « جاك » وأخذ ما شاءَ من أدوات ، وعاد إلى سطح السفينة ، وعاين موضعَ القطع من الحبل ، فرآه مقطوعاً بفعل فاعل أمَرَّ عليه حدَّ السكين وربط أليافه ربطاً خفيفاً لكي يبدو للعيان سليماً وينقطع حالما يُشَدّ .

فأيقن « جاك » أن « يوسف منزى » هو صاحب هذا التَّدْبير ، فإن تركه وشأنَه أفلا يعودُ إلى حبك جريمته مرّة أخرى؟ ولئن كان القدرُ قد أنقذه من الموت المحقَّق إنه قد يذهب ضحية ذلك المجرم فى فرصة ثانية ، فآلى أن يؤدِّبه حتى يأمن شره ، فصاح يخاطب « يوسف منزى » :

– « ابْقَ على عجلة القيادة ... تُعْوِزُنى بعضُ الأدوات ... سأنزل وآتى بها . . . »

وبأسرع من ترَدُّد الطَّرْف نزل « جاك » إلى خزانته وأخذ منها مسدسه ودسَّه فى جيبه ، وعاد إلى سطح السفينة ، وانكب على حبل الشِّراع فانتزع متراً من كل جانب من جانبى المكان المقطوع بالسكين ، ثم وصل الحبلَ وأقام السارية ورفع الشِّراع ، وانتهى من كل ذلك فى نحو ساعة ، فلما اطمأن إلى عمله سار إلى « يوسف منزى » ورمى إليه قطعةَ الحبل المقطوعة بالسكين وقال له :

— « ما رأيُك فى هذا ؟ »

فامتُقع وجه « يوسف منزى »، وزاغ بصرُه ، وتجنَّب رؤية الرجل الذى أراد أن يقضى عليه ، فتمتم قائلاً :

— « إنه حبلٌ بالٍ ... أجَلْ إنه حبلٌ بالٍ ...» فقال له « جاك »:

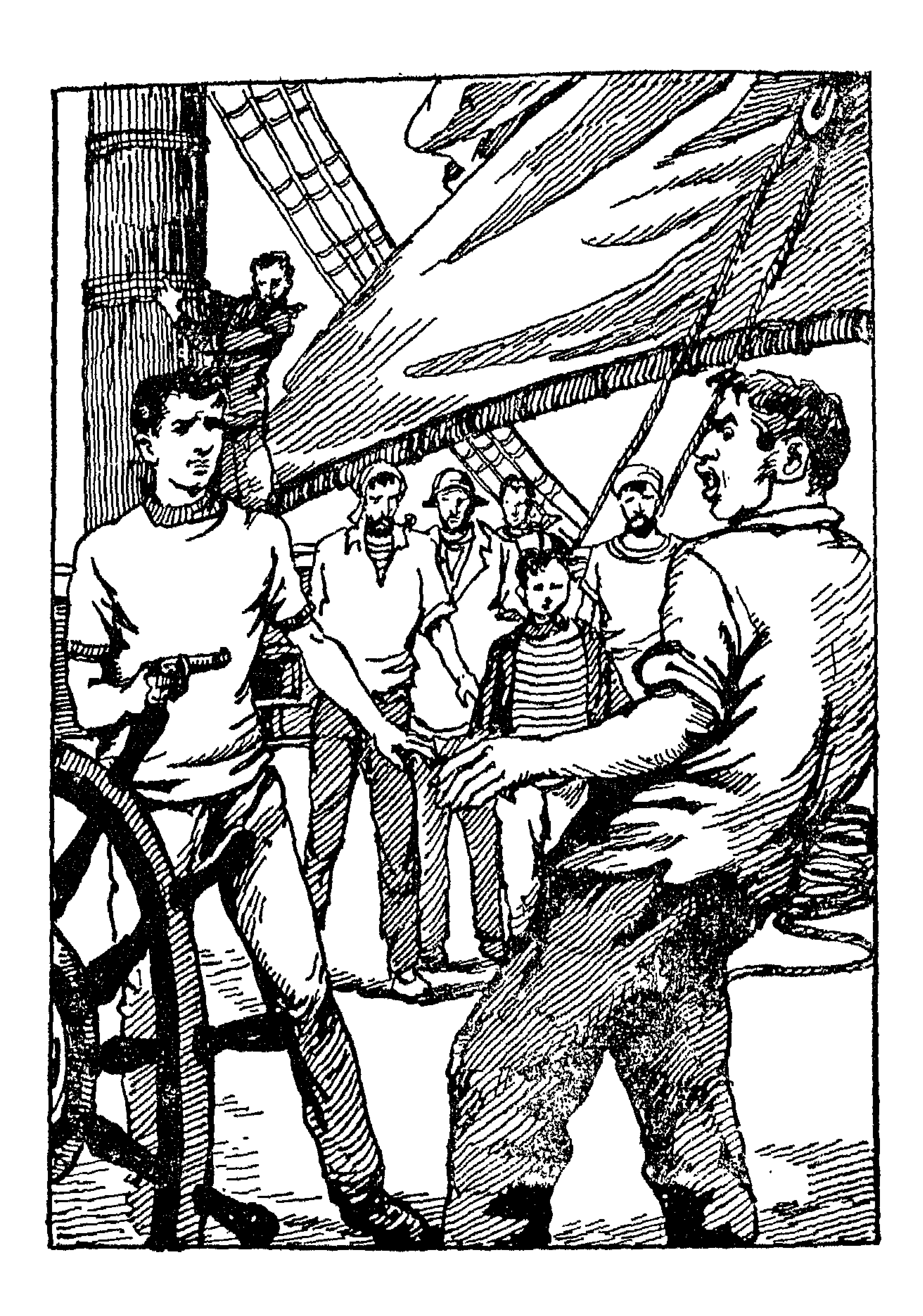
— « أواثقٌ أنت بأنه حبلٌ بالٍ ؟! »

وكان الحبلُ جديداً من أمْتَن أنواع الحبال ، فعقد « جاك » فيه عقدةً شديدة واتخذه مِقْرَعة أهوى بها على وجه « يوسف منزى » .

فزمجر « يوسف منزى » متألماً ، فترك عجلة القيادة وهجم على ضاربه ، فاستقبله « جاك » والمسدس فى يده فصوَّبه إلى صدره وقال له :

— « سأقتلك كما يُقتل الكلب الأجْرب أيها المجرم ...» فقال « يوسف منزى » وهو يتلعثم :

— « سيكون . . . سيكو . . . ن مصيرك السجن ! » فقال « جاك »:



— « كلا . فإني في موقف الدِّفاع عن النفس . . . ومن العدل أن أنقذ البشرية من آثامك وشرورك ! . . . أفهمتَ أيُّها الجبان ؟ ! »

واتَّفق أن صعدَ إلى سطح السفينة في تلك اللحظة غلام السفينة والبحارة ، فدهشوا من ذلك الموقف فأنهى « جاك » إلى الغلام أن يدعو الربّان . فجاء هذا على عجل . وكان سكران ثملا فأطار ذلك المنظر من رأسه نشوة الخمر ، فأخذ يجيل طرفه بين المسدس المشهور في يد « جاك » وخدّ ابنه الدامي فقال متسائلاً :

— « ماذا حدث ؟ ما هذه الحال ؟ » فقال « جاك » :

— « أراد ابنك الوَغْد أن يقتلني ... ولقد دعوتُك إلى هنا لتكون أنت وبقية البحارة شهوداً على العقاب الذى سأنزله به ... لو كنَّا نستطيع أن نَستبدلَ به غيره لكنتُ قتلته قتلَ الكلاب ،ولكنني لا أودُّ أن أحمِّلَ نفسي عملاً آخر فوق أعمالي » .

ثم وجه « جاك » خطابه إلى « يوسف منزى » وقال له :

— « ارفعْ يديك أيُّها الوَقح ! »

فرفع « يوسف منزى » يديه ، وسدّد « جاك » مسدسه تسديداً مُحكماً إلى أصبع من أصابع « يوسف منزى » ثم ضغط على الزّناد فانطلقت الرَّصاصة وقطعت إبهام « يوسف منزى » قبل أن تستقرَّ في صفحة الماء ، فشرع هذا يبكي ويصرخ وجثا على ركبتيه يطلبُ الرحمة ، فصاح فيه « جاك » صيحةَ الليث الغضوب :

— « ارفع يديك وإلا فودِّع الحياة ! »

فرفع « يوسف منزى » يديه مرةً أخرى . وانطلقت رصاصة ثانية شرَمَتْ له السبابة وهكذا فقدت يده اليسرى إصبعين ولم تعدْ إلا قطعةً من اللحم الدّامى . . .

لم يستغرق ذلك المشهد أكثر من عشرين دقيقة . ولقد كَفَتْ تلك الدقائق العشرون لتنتزعَ من صدر « جاك » كلّ ما كان يجولُ فيه من أدبٍ ورقّة . ولُطفٍ ودَعَة . فانقلب رجلاً غليظ الكَبد جافى الطّباع قاسى الوجه . فاقترب من « يوسف منزى » ورفسه برجله وقال له :

— « انهض أيها الوغدُ البليد »

ثم التفت إلى بقية الرجال وقال لهم فى جفاء وغلْظة :

— « لينصرف كلٌّ إلى عمله . . . »

فانصرفوا طائعين . وأصبحوا بعد ذلك رهنَ إشارة من إشاراته ينفّذون كلّ ما يأمر به وينهى . كأنه هو الربان . ولا يتورّع عن أن يقذفهم بالشتائم والسباب وهو الفتى الحضرى المتمدّن .

وعاش « جاك » بعد ذلك على ظهر تلك السفينة فى ثورةٍ جامحة ، فلم يحقد عليه رفاقُه بل أضمروا له فى نفوسهم عواطفَ الإعجاب .

أمّا هو فكأنما قطع ذلك الحادث كلّ صلة له بماضيه . فأقبل على حاضره يعيشُه عيش هؤلاء الملاحين . حتى أصبحَ لا يفكّر فيما كان عليه وفيما أصبح فيه . لولا ذلك الستار الصّفيق الذى انسدل على الماضى لتقطّعت نفسُه حسَرات .

انتهت الرحلة وعادوا منها بصيد ثمين ، فلم يكن « جاك » مشوقاً إلى المدينة حتى لكأنه أصبح يكره نظامَ المدن ومجالى الحضارة فيها ، وكان إذا لَبَّى دعوة « هارڤر » إلى تناول الطعام فى منزله ، لم يحفلْ بالمائدة الأنيقة ، والطعام الشهىّ ، والملاءة النظيفة ، والصحون اللاَّمعة ، بل كان يؤثر عليها قذارة السفينة ومَتاعها .

وكثرت الرحلات إلى البحار النائية ، وعاد دائماً منها بالمغانم الكثيرة وأصبح لا يقابل صاحب السفينة إلا عندما يقبض من مكتبه نصيبه من مغانم الصَّيْد .

وأدرك « هارڤر » ذلك التغير الذى طرأ على الفتى ، فما لامه فى قرارة نفسه ولا رثى لحاله ، بل سرَّه أن يرى فى « جاك » رجلاً مكتمل الرجولة ، بنى نفسه بنفسه فلم يتضعضعْ لحوادث الأيام ولا وَهَنَ منه العَزْم ...





٤

اشترى « هافر » ذاتَ يوم سفينةً يسيرها البخار ، فعرض على « جاك » أن يعمل فيها مساعداً للربَّان فأبى ونزل عن تلك الترقية ، لأنه فى الواقع كان الربان الحقيقى للسفينة التى يعمل عليها وإن لم تكن سفينة بخارية . على أن « هارڤر » ألحّ وشدّد فى الإلحاح ، فلم يسع « جاك » إلا الإذعان .

ولشدّ ما دهش « جاك » عندما جاءهُ الغلام «جيّوم» والتمس منه أن يصحبه معه فى سفينته الجديدة ، فرفض «جاك» ونصحه بالبقاء حيث هو ، فمجال التقدم فى السفينة التى يعمل فيها أيسر أمراً ، فى حين أنه لو التحق بالسفينة

الجديدة فلن تكون مهمته فيها غيرَ مهمة الغلام الخادم .

وكرّر « جيّوم » الرجاء والالتماس وبيّن للفتى « جاك » أنه يخشى سطوة « يوسف منزى » فسوف يقتله لا محالة لأول هفوة يرتكبها ، وأنه فوق ذلك يريد أن يستمرّ فى خدمته ، فهو أعرَفُ الناس بعاداته وألوان الطعام التى يؤثرها ويحبّها . . . فما زال به يرجوه ويلح فى الرجاء حتى قبل « جاك » أن يجيبه إلى سؤله ، ووعده أن يحدّث السيد « هارفر » صاحب السفينة فى ذلك ، فلم يمانع هذا بل ضمّ الغلام إلى رجال السفينة الجديدة ، ورقّاه إلى منصب ملاح .

رفعت السفينة مِرساتها فى اليوم الثلاثين من شهر مارس ، وسارت تشقّ العباب إلى قصيّ البحار ، وتسلم « جاك » منصبه فيها ، وبدأ يستعمل نفس الطريقة الجافية التى استعملها مع رجال السفينة الأولى وأتت ثمارها . غير أن البحّار الموكول إليه إدارة محرك السفينة ، لم يرتح إلى معاملة « جاك » فقد كان يعد نفسه دائماً فى مقام الربان المساعد ، فضاق صدره ذَرْعاً بهذا الفتى الذى جاء ينهى ويأمر ولا يرعى له حُرْمته السالفة ، فتمرّد فى اليوم الأول على « جاك » فلقّنه « جاك» درساً قاسياً فى الخضوع والطاعة ، وكال له الضَّرَبات العنيفة . فكلّفه تمرُّده فقدانَ ثلاث من أسنانه ، وعاد إلى مكانه خاضعاً ذليلاً ، فاعتبر بقية الملاحين بذلك الدرس ، وساد النظام فى السفينة على ما يحبّ « جاك » ويشتهى .

وقضى «جاك » كل أوقات فراغه منكبّاً على دراسة الخرائط والأنواء ،

وعلوم البحر والفلك . وطبائع الأسماك الكبرى . ومختلف المواقع والخلجان المنتثرة فى «إسلندة» و « نروج » . حتى إذا كاد الصيف ينتهى ، كان ملاحاً ممتازاً عليماً بفنون الملاحة وأسرارها .

وحينما عادت السفينة إلى مدينة « برست » تقدم إلى الامتحان ليشغل منصب ربان سفينة . فجاز الامتحان ونجح فيه نجاحاً باهراً ، وكان « هارفر » قد اشترى سفينتين جديدتين فعينه رباناً على إحداهما .

بَيْدَ أن هذا التغيُّر الذى طرأ على علمه وفنه فى شؤون الملاحة لم يبدل من أخلاقه المكتسبة ولا من عاداته . فهو هو ذلك الجاف الغليظ . والرجل الذى لا يعانَد . فطارت له شهرةٌ بين السفن والملاحين . وكان «جيوم» الغلام ألزمَ له من ظله ، يحبُّه ويُعْجَب به كلَّ الإعجاب .

وصلت أنباء تلك الشُّهرة إلى مسمع « هارفر » فطرب لها ، وسرَّه أن يرى فى ذلك الفتى الجسور المقدام رجلاً حازماً يرهبه العاملون ويحسبونَ له ألفَ حساب . فقرر فيما بينه وبين نفسه أن يُعْفِيَه من العمل على ظهر السفينة . ويعهد إليه فى إدارة مكتبه ، طمعاً فى أن يفرض على رجال المكتب هيبته وسطوته . فيسود بينهم النظام . ثم يُنظر فى أن يشْرِكه معه فى أرباح الشركة .

وعاد « جاك » يوماً من إحدى رحلاته ، ففاتحه « هارفر » فى الأمر ومنّاه بزيادة راتبه إذا هو قَبِل أن يدير الشركة ؛ فأبى « جاك » واعتذر ،

وقال له بعد شديد إلحاحه :

ــ « لقد قذفتَ بى يا سيدى إلى البحر ، فدَعْنى أعيش فى البحر وأموت فيه ... إنى لم أعُدْ أصلح لحياة المدن ، فبينى وبين تلك الحياة هوّةٌ عميقةُ القَرار . . . »

فتبسم « هارفر » وقال :

ــ « لستُ نادماً على أن قذفتُ بك إلى البحر ، فقَسوةُ الحياة فيه قد جعلتْ منك رجلاً أىَّ رجل . . . أما عادات المدينة والحياة فى غمارها ، فسوف تألَفها عما قريب ، فلا تنس أنك ابن " بارون " وفتًى من علِية القوم . . . » فقال له « جاك » آسفاً :

ــ « إن الماضى يا سيّدى قد مات فى خاطرى ، فلستُ اليومَ إلا ملاّحاً ذا يدين خَشِنَتَين ونفسٍ صارمة ... ولستُ أنسى أنك رأفتَ بى ودبَّرت لى عملاً أرتزق منه بعد نكبتى ، فاتركنى لهذه الحياة التى رمَيْتنى فى أمواجها ... » فقال « هارفر » :

ــ « إنى مصرٌّ على ما أعرضه عليك ، وسوف تستجيبُ لرَغْبتى ، على أننى أمهلك شهرين تفكر فيهما وتتدبّر أمرك » .

وانصرف « جاك » وقد صمّم على أن يرفض طلب « هارفر » ، فما عاد يستعذبُ العيش فى المدن ، وقال فى نفسه : لئن رجعتُ من هذه الرحلة التى سأقوم بها بعد أسبوع ، ورأيت « هارفر » مصراً على فكرته

لأستقيلنّ من عملى عنده وأذهبنّ إلى « باريس » وأنفقنّ فيها ما ادخرتُ من مال لاهياً متمتعاً بمباهج الحياة،ولن أعْدَمَ بعد ذلك صاحب سفن يلحقنى بالعمل على إحدى سفنه ما دمتُ قد أصبحتُ ربّاناً ماهراً وفى يدى شهادة ناطقة بذلك .

وانقضى الأسبوعُ ، وسار « جاك » بسفينته إلى الصيد فى أعالى البحار ، وقضى هو ورجاله عدّة أسابيع يجمعون المغانم من ثروة البحر ، وعرّج بسفينته وهى راجعة على بعض شواطئ « إسلندة » ليتزوّد ببعض الزاد من قريةٍ من قراها .

وفيما هو يقترب من الشاطئ ، هُرِعَ إليه أحدُ الملاحين يدعوه إلى مخزن السفينة وأماراتُ الفَزَع والاضطراب والحزن مرتسمةٌ على وجهه ، فطار إلى المخزن فوجد الغلام « جيوم » منطرحاً إلى الأرض وهو أقربُ إلى الموت منه إلى الحياة ، فعلم أن صندوقاً من الصناديق الضخمة قد سقط فوقه فحطّم عظامه، وأن رفاقه قد بذلوا جهد اليائس فى انتشاله من تحت الصندوق ، فأمر بنقل الغلام إلى مخدعه، وأسعفه بما لَزِم ، وانحنى فوقه يرطّبُ خاطره ، ويشجّعه على احتمال الأذى والألم ، ففتح الغلام عينيه فقرأ فيهما « جاك » عبارات الشكر فقال له :

— « أتتألّمُ يا " جيو " ؟ » فقال الغلام بصوت خافت :

— « قُضِيَ الأمر يا سيدى ، سأموتُ بعد قليل . . . »

وكان العرق يتصبب من جبين الغلام ، وأنفاسه تتقطع فقال :

— « عبثاً تحاول إنقاذي يا سيدى . . . إنى مائتٌ لا محالة . . . ولن أرى منزلى وأهلى . . . »

ولزم « جاك » الصمتَ مذهولاً من شجاعة الغلام ، فما سمعه تألم ولا اشتكى ، على ما هو عليه من جراح وعظامٍ محطّمة .

وبعد لحظات سمع « جاك » الغلام يقول له :

— « نعم ... سأموت . . . ولكن اسمع يا سيدى "جاك" وصيتى إليك : عندما تخمد أنفاسى فانقلنى إلى الشاطئ ، وأودِعنى حفرةً من الأرض ... لقد عشتُ ما عشت فوق متن البحار فدَعنى أستريح بعد الموت تحت الأعشاب . . . إنى أخاف من الأسماك ، لقد كانت طعامى طولَ عمرى ، فلا تجعلها تأكلنى » .

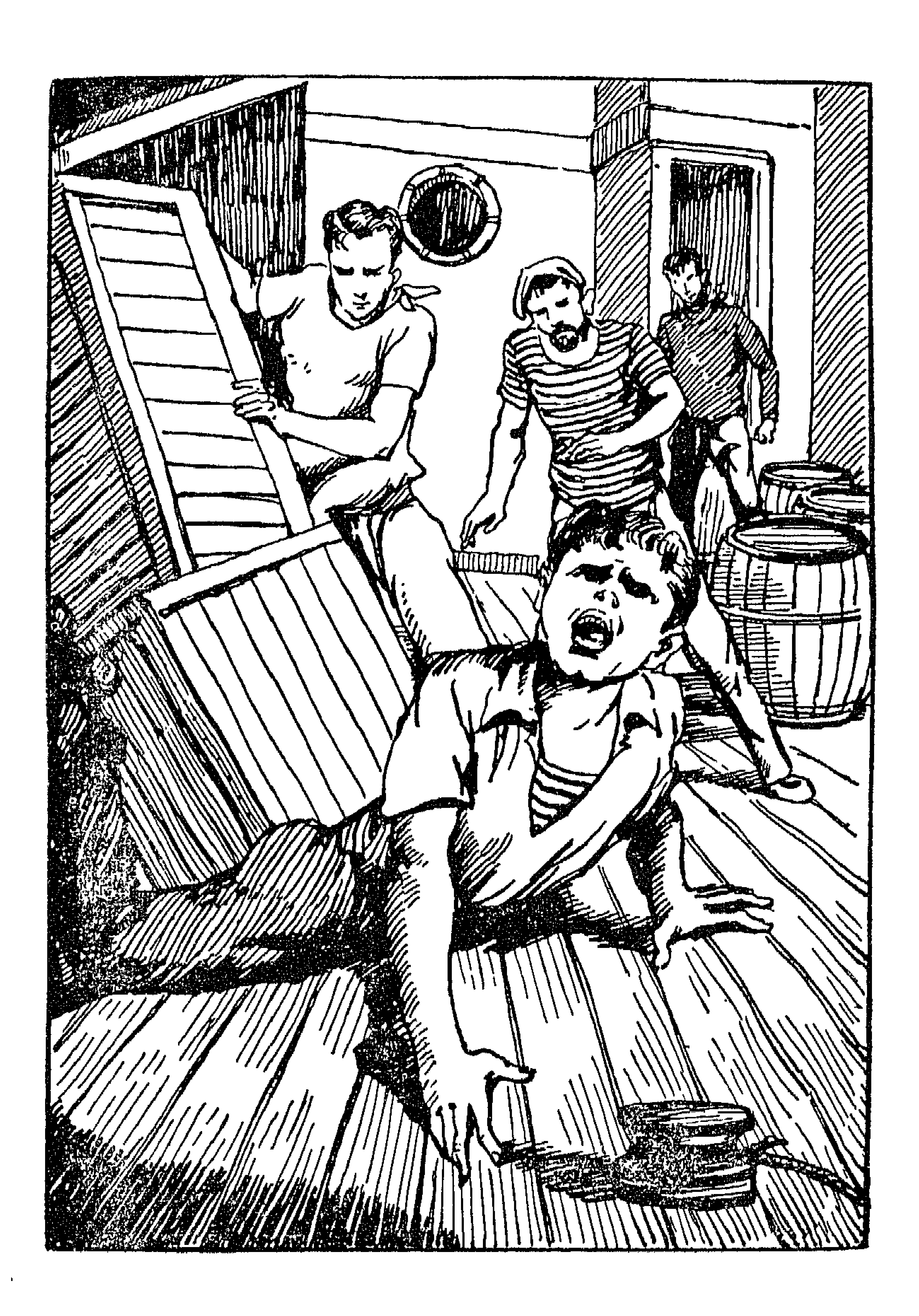
وحاول الغلامُ بعد كلامه هذا أن يبتسم ، ثم تابع كلامه قائلاً :

— « إن لى أخاً يعمل فى سفينة تسمى " المغامرة الجميلة " ولقد كنتُ أخذت منه علبته التى يضع فيها التبغ فأرجِعها إليه غيرَ مأمور...»

وبدأت عيناه تغمَضان ، ففتحهما فى صعوبة وقال :

— « قل لى يا سيدى " جاك " . . . هل مِتُّ كما يموتُ الرجال ؟ ما صرختُ ولا اشتكيتُ ، أليس كذلك ؟ »

وبقى « جاك » صامتاً لا يحيرُ جواباً ، فما هى إلا ثوانٍ معدودات



حتى لفظ الغلام أنفاسه ، فأقبل عليه بعض البحارة فكفنوه و « جاك » ينظر إليه حزيناً ، وهو الذى اجتث من فؤاده كل شعور بالعطف والحنان، ولكن الحزن تغلب على قسوة فؤاده لما كان يعلم من حب الغلام له .

وتذكر وصية الغلام فقرر أن ينفذها ما دام قد مات ميتة الرجال.

وصعد إلى ظهر السفينة ، وأجال بصره فى زرقة البحر وهو ساهم واجم ، يعتمل فى صدره شعور غريب. وكادت السفينة تصل إلى أقرب موقع من الشاطئ تستطيع الوقوف فيه ، فأمر « جاك » بإنزال « أحد » القوارب ونقل جثة الغلام إليه ليستقله هو وبعض الملاحين إلى الساحل .

ومر به أحد الملاحين وكان ممن يعرف بلاد « إسلندة » كل المعرفة ، فوقفه وسأله عن اسم تلك القرية التى تلوح لعينيه عن بعد ، فقال له الملاح :

— « إنها يا سيدى قرية تدعى " درهولاى " وهى واحدة من ثلاث قرى صغيرة تقوم على سفح تلال جرد » .

فقال « جاك » :

— « وما معنى " درهولاى " ؟ » فقال الملاح :

— « معناها يا سيدى " ثقب الباب " » .

فاكتفى « جاك » بما سمع ، وأشار بيده إلى الملاح إشارة الانصراف

فانصرف ، وأخذ « جاك » ينتظر إنزالَ القارب وقد نشبت في صدره ثورةٌ عنيفة .

ذكّره اسمُ القرية بتلك الأرض الجرداء التي استغلها والده للنصب والاحتيال ، فألّف لها الشركة الوهمية ، وزعم أنها مناجم غنيّة سوف تستخرج الشركة منها الكبريت ، وذكره اسمها أيضاً بأن أول ضحية لوالده كان ربّاناً عجوزاً اكتتب في تلك الشركة بكل ما كان ادّخره من مال ، حتى إذا بانتْ له حقيقةُ الحال، حزِن أشد الحزن ، ثم مات غمّاً وترك بعده على ما قيل « لجاك » ابنةً وحيدة يتيمة .

وعَجِب « جاك » من تصرُّف الأقدار ، ففي الوقت الذي كان قد عزم أن يترك حياة البحر إلى حياة المدن ، وفي الوقت الذي كان قد قطعَ فيه كل علاقة بماضيه ، يدفعه القدر إلى بقعة تثير فيه ذكرياتِ الماضي بكل ما تتضمّنه من المآسي والآلام .

وصحا « جاك » من تفكيره على صوتِ الرجال الذين أنزلوا القارب ونقلوا إليه جثة الغلام « جيّوم » ، فغادر السفينة إلى القارب مضطرب الفؤاد ثائرَ الجوانح .

ولقيَهم عند الساحل جماعةٌ من القرويّين ، طلب إليهم بعضُهم أن يشتروا منهم قليلاً من التّبْغ ، فزجرهم « جاك » وأجابهم بلهجة قاسية ، وأعلمهم أنّهم لا يتاجرون بالتّبْغِ .

وسأل « جاك » سيدةً عجوزاً من تلك الجماعة ، أن تدلّه على مدافن القرية ليدفنوا فيها فقيدهم ، فدلّته عليها وأخبرته أنه لا بد من حضور شيخِ القرية ليثبت فى سجلّه حادث الوفاة وشهادة الشُّهود ، خوفاً من أن تكون هناك جريمةٌ من الجرائم .

وتمت مراسيم الدّفن على ما تقتضيه أنظمة القرية ، ثم ودّع « جاك » قبر غلامه المسكين وارفضّ عقْدُ القوم .

وشاء « جاك » أن يجول قليلاً فى تلك الأنحاء ، فاصطحب معه رجلين من رجاله ، وآخر من سكان القرية ، وساروا قُدُماً إلى التِّلال الرابضة على بعدٍ من القرية .

وفى أثناءِ المسير سأل « جاك » مرافقَه أن يمضى به إلى الأرضِ الجرداء التى تقوم عند نهاية القرى الثلاث ، واجتهد أن يتذكر أسماءها فتذكرها ، وكان طالما قرأها فى وثائق التحقيق التى أيدت جريمة والده ، وكيف لا يتذكر أسماء تلك القرى وما ينبسطُ بعدها من تلال وصخور جرُرْدكان «هارفر» قد باعها لوالده ، واستغلها والده فى حَبْكِ خيوط جريمته ؟

بلَغ القوم بُعد مسير ساعتين إلى بُقْعَة صخرية مملوءةٍ بالآكام والهضاب ، فمن صخور مجوّفة إلى حجارة مسننة ، ومن صخرةٍ ضخمةٍ عاتية إلى صخرةٍ صغيرة متواضعةٍ نبتت تحتها بعضُ الأعشاب البرية ، وكانت تلك الصخورُ فى ألوانٍ متعدّدة ، ينهمرُ عليها الثلج ويجثمُ فوقها طبقة فوق

طبقة، فإذا أذابته حرارة الشمس سال وصَقَل بعض الرُّبود النّاتئة منها فنظر « جاك » إلى تلك البقعة حيرانَ أسِفاً وشاء أن يصطحب منها تذكاراً ولو مؤلماً، فَعَمَدَ إلى صخرة خضراء مَلْساء، واقتطع منها قطعةً وضعها فى جيبه، وقَفَلَ هو ومن معه عائدين إلى الساحل، فنَفَحَ الدَّليلَ الإسلندىَّ بهبةٍ مالية ، واستقلّ ورجاله القارب ، ورجعوا إلى السَّفينة .

ومخرت السَّفينةُ عباب الماء عائدةً إلى الميناء الذى أقلعتْ منه، ففرَّغتْ أحمالَ الأسماك ، ومضى « جاك » إلى مكتب « هارفر » فقبض قيمة نصيبه من الصَّيْد ، ولم يعرج على « هارفر» بل مضى توًّا إلى محطة سكة الحديد وركب منها القطار المسافر إلى « باريس » .

ولم يكَدْ يصل إلى « باريس » ويخرجُ من المحطة حتّى استقل مركبة أجرة وطلب من السائق أن يوصله إلى مكتب صديقه القديم « بطرس » وكان صديقه هذا يعمل هو وشريك له يدعى « أرمان » سمسارين للقراطيس المالية فلما دخل عليه كان هذا منهمكاً فى الكتابة ، فرفع رأسه قليلاً وقال دون أن يتبين القادم عليه :

— « ماذا تريد يا سيدى ؟ هل من خدمة أؤديها لك ؟ » فقال « جاك » :

— « أريد أوّلاً أن تصافحنى يا عزيزى " بطرس " ! »

فوثَبَ «بطرس» واقفاً وقد نفضَتْه روعةُ المفاجأة حتّى انقلب مقْعدهُ

إلى الخلف فقال :

– « أأنت هنا يا " جاك " أهلاً بك ومرحباً » .

وتصافح الصّديقان وتعانقا بلهفةٍ وشوق ، وقال « بطرس » :

– « كم تغيّرت يا عزيزى "جاك" ! كيف هجرتَ المدينة دون أن تودّعنى ، كيف حجبتَ عنّى أخبارك طول هذه السنوات الخمس؟ ما هذه الملابس ؟ ماذا أصبحتَ؟ أعاملاً فى منجم أم باحثاً عن الذهب؟ حدّثنى حدّثنى عنك ... ما حالُك وما شأنُك وماذا فعلت ؟ » فقال « جاك » :

– « ادّخرتُ قليلاً من المال ، وجئتُ أنفقه فى " باريس " فساعدنى على ذلك ... دلنى أوّلاً على عنوان خيّاطك ، ثم ابحث لى عن مسكنٍ آوى إليه . » فقال « بطرس » :

– « سأقوم بكل ما تطلب. ما أسعدَنى بلقائك » . فقال « جاك » :

– « لستُ أقلَّ منك سعادةً بهذا اللقاء يا عزيزى "بطرس " » .

وحدّق كلٌّ منهما فى الآخر بعينين مغرورقتين بالدّموع ، ثم قال « جاك » :

– « لا أستطيعُ أن أعبّر لك يا عزيزى "بطرس" عن الغبْطة التى خالجَتْنى عندما وطئت قدماى " باريس " ووقعَ نظرى على معالمها ... لكأنّها ازدادت حسناً ورونقاً ... آه ما أسعدنى فيها . . . لقد قضيتُ

خمس سنوات لم أحادث فى خلالها رجلاً متحضراً ... قد أكونُ جافاً غليظاً ولكنَّنى أعدك بأن أستعيد رقَّة الشمائل التى عرفتنى عليها بحيثُ لا تخجل من تلميذك » . فقال « بطرس » :

– « لا أشكُّ فى ذلك أبداً » .

ودَعا « بطرس » كاتبه ، ورجاه أن يستأجر مسكناً لصديقه « جاك » ثم غادر الصَّديقان المكتبَ واستوقف « بطرس » سيارة أجرة ركباها معاً، فلما استوى كلٌّ منهما فى مقعده قال « بطرس » :

– « والآن ، ألا تقولُ لى من أين جئتَ وماذا تريد أن تفعل ؟ » فقال « جاك » :

– « ألم أقلْ لك إنى آتٍ من الجحيم ؟ ! لقد عشتُ عيشَ الكلاب ، على أننى لم أرتكب فيه وِزْراً ولا إثماً . . . كسبتُ رزقى بعرق الجبين وبالمشقّة والعناء، وادّخرت قليلاً من المال جئتُ أنفقه... وكل ما أفكر فيه الآن هو أن أرتاد المسارح وأندية الموسيقى وأفخم المطاعم » . فقال «بطرس»:

– « لقد كنتَ أنت تحب كل هذا فيما مضى ، وكنت أنا أحاول أن أفهمك أنه تـرَّهات وأباطيل . . . » فقال « جاك » :

– « كنتُ أبلَهَ أحمقَ . . . » فقال « بطرس » :

— « وما أحسبكَ عُدْتَ إلى "باريس" لتستسلم إلى الملاهى والمباهج ، فلا بد من أمر يشغلُ بالك » .

فقال « جاك » :

— « استمعْ إلىَّ يا صديقى ... لقد عشت فى أوّل الأمر سنتين عيشَ المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة . . . رأيتُنى على قاب قوسين أو أدنى من ارتكاب الجرائم ، فأشعتُ من حولى الخوفَ والإرهاب لأكسب رزقى » .

ووقفت السيارة بالصديقين ، فنزلا منها وأخذا يتمشّيان قليلاً على أرصفة الشوارع ، وعينا « جاك » لا تفارق واجهات الحوانيت . أما ضجّة السائرين فكانت تصلُ إلى سمعه وكأنها هدير الأمواج .

ورآه صديقه يتمايل فى مشيته فقال له :

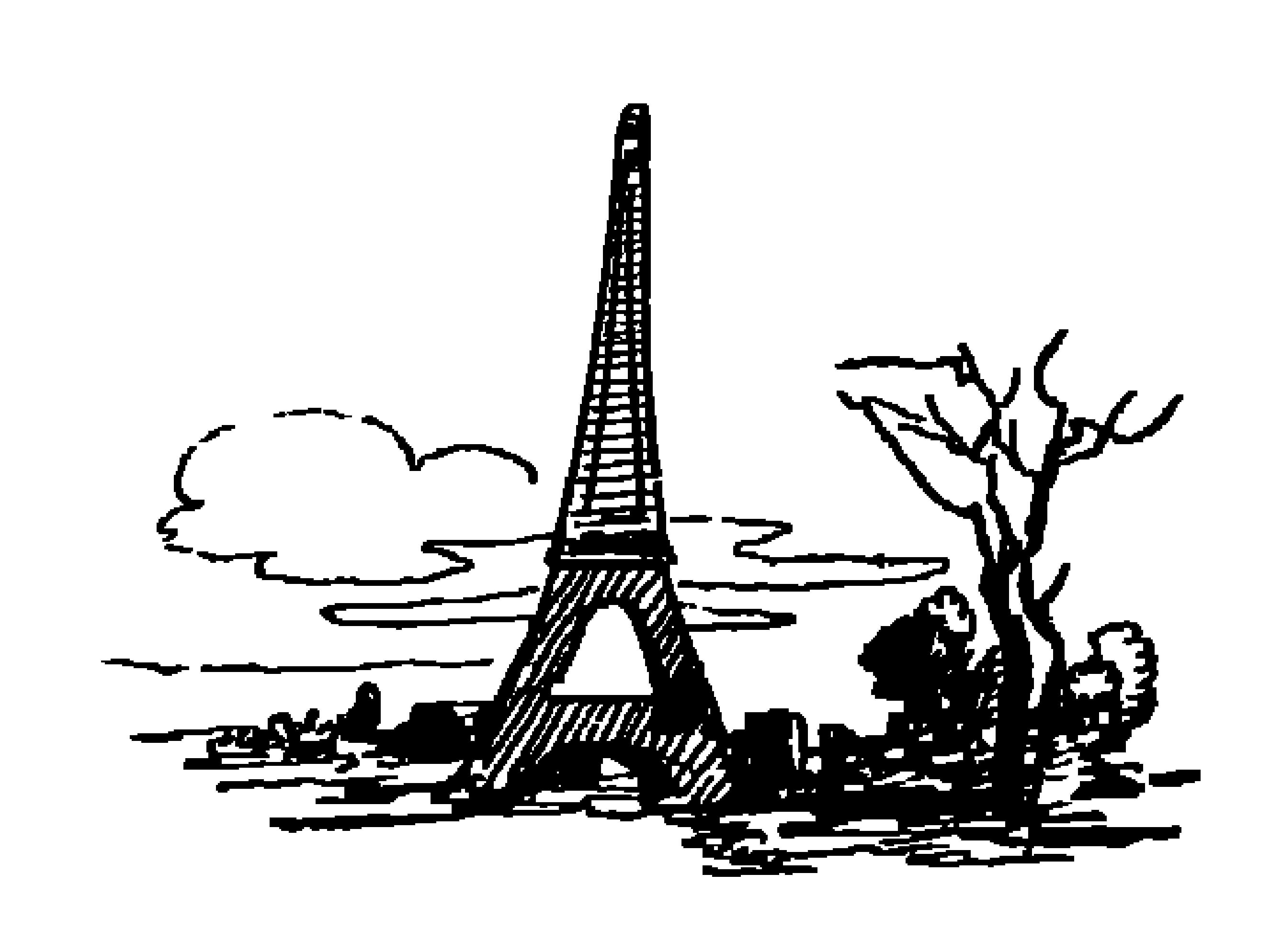
— « لكأنّك قضيتَ هذه السنوات الخمس على ظهر السُّفن ... فكيفَ جمعت المال على حين لم تصل إلينا أية أخبار عن أعمال القرصان » .

فضحك « جاك » وقال :

— « تعال نحفل أولاً بشراء بعض الملابس ، بل تعال نتناول طعام الغداء » .

ودخل الصديقان أحد المطاعم ، فتناولا فيه طعاماً شهيًّا ، ولما أشعل

« جاك » لفافة التبغ تحسسَ فى جيبه قطعة الصخر التى جلَبها من « إسلندة » كمن يريدُ أن يقنع نفسه أنه يقظان لا يحلم . . .





٥

قضى « جاك » ثلاثة أسابيع مستسلماً إلى ما سنَّه لنفسه من نظام اللّهو والمُتْعَة ، فنى صباح أحد الأيام دقّ جرس الساعة ليوقظه من النوم ، فصحا متثاقلاً متائباً ، وكانت الساعة الحادية عشرة ، فنهض يرتدى ملابسه فى سآمة وضجر ، ويطيل النظر من نافذة غرفته إلى الشارع المزدحم بالناس بين ذاهب وآيبٍ ، فقال فى نفسه : لقد استنفدتُ فى أقلّ من شهر شَهْوتى إلى الملاهى ، فبدأ الملل يدبّ إلى نفسى وأخذ الشوق إلى البحر يهتاجنى .

وبينما كان غارقاً فى التفكير ، سمع قرعاً على الباب ، فأذِنَ للقارع

فى الدّخول، وظنّ أن القادم عليه هو بوابة المنزل جاءت تصلح من شأن الغرف ، وتعيد تنسيقها وترتيبها ولكن الباب فتح ولم يدخل منه إنسان ، فاستدار « جاك » إلى الباب فرأى فتاةً واقفةً عند العتبة فقالت له :

— « عذراً يا سيّدى فما كنت أعرف أن السيد " إدمون " يستقبلُ بعض الزائرين فهل فى استطاعتى أن أقابل السيد " إدمون " ؟ »

- وكان صوتُ الفتاة ذا جرْسٍ جميل ولهجةٍ نرمنديّة، فقبل أن يجيب " جاك " عن سؤال الفتاة تطلع إليها فاحصاً مدقّقاً، فرآها جميلةً حسناء على ما هى عليه من نحافة وهزال، ورأى ملابسها ثقيلةً خشنة فى حين أن الوقت صيف ، فأيقن أنها رقيقة الحال ، فدعاها للجلوس فى مقعد كان قربَ الباب وأمامه مِنْضدَة صغيرة .

وكانت الفتاة تحمل فى إحدى يديها ظرفين كبيرين فقال لها « جاك » :

— « لا أعرف يا آنسة السيد " إدمون " الذى تسألين عنه » . فقالت الفتاة :

— « فماذا تعملُ إذن فى منزله يا سيّدى ؟ » فضحك « جاك » وقال :

— « إنى فى منزلى يا آنسة . . . فإن كنت تقصدين المستأجر السابق فقد قيل لى إنه غادرَ هذا المنزل وسافر إلى إيطاليا أو إسبانيا » .

فطأطأت الفتاةُ رأسها، وخمدَ بريقُ عينيها، وقالت بلهجةٍ حزينة :

— « ألا تعرفُ عنوانه يا سيدى ؟ » فقال « جاك » :

— « إن الذى استأجرَ لى هذا المنزل من المستأجر السَّابق مكتب " بطرس وأرمان " للقراطيس المالية ، وأظنّ أن صديقك قد طلب إلى السيد " أرمان " أن يوافيه ببريده ، فلعله يعرف عنوانه ، وإنى ذاهب إلى ذلك المكتب فإن شئتِ صحبتُكِ معى » .

فقبلتْ شاكرة ، وغادرا المنزل ، وتحامل « جاك » على خشونته ليجعل الفتاة تمرُّ قبله من الباب ، فلما هبطا إلى الشارع استوقف « جاك » سيارة أجرة فقالت له الفتاة :

— « أوثِر يا سيدى أن نسعى إلى صديقك مشياً على الأقدام ، فلستُ أوَدُّ أن أحمِّلك مؤونة الإنفاق فوق مؤونة الإزعاج » . فقال « جاك » وكانت السيَّارة قد وقفت :

— « لا إزعاجَ ولا إنفاق ، هيَّا تفضَّلى بالرُّكوب » .

فنظرت الفتاة إليه مدهوشة ، وعندما استقرّت فى مقعدها من السيارة قالت له :

— «أسألك المعذرة يا سيِّدى . . . » فقاطعها « جاك » قائلاً :

— « بل أنا الذى أسألك المعذرة يا آنسة ، فقد يبدو تصرُّفى غريباً شاذّاً فى بعض الأحيان . . . »

فتبسمت الفتاة ابتسامةً حلوة ، وقالت وهى هانئةٌ بمقعدها الوثير :

— « ما أجملَ أن يسعى الإنسانُ إلى غايته على مَتْن سيارة ! »

وكان «جاك» يسترقُ النَّظر إلى جارته بين الفَيْنة والفَيْنة ، فأسفَ على أن يوَشِّح الهُزالُ جمالها الغض ، وأدرك أن قلةَ الغذاء سببٌ فى ذلك الهُزال .

وصلت السيارة إلى حيث يقصدان ، فترجَّلا منها ، وشكرت الفتاة « جاك » شكراً جزيلاً ، وحيَّته مودِّعة ، ولكنه أصرَّ على أن يوصلها إلى السيد « أرمان » فصعدا معاً إلى المكتب ودلَّها على حجرته ، ودخل هو إلى حجرة صديقه « بطرس » فقال له هذا :

— « ما الذى جاء بك فى مثل هذه الساعة ؟ » فقال « جاك » :

— « فتاةٌ وسيَّارة ... قدمتْ إلىَّ الفتاة ظنًّا منها أن المستأجر القديم لا يزالُ يسكن المنزل ، فأوصلتها إلى هنا ، وأدخلتها إلى "أرمان" لتتزوَّد منه بما تشاءُ من أنباء ... هذا كلُّ ما فى الأمر . وأنت كيف حالُك ؟ » فقال « بطرس » :

— « بخير وعافية . . . هل تريد أن تتغدى معى ؟ » فقال « جاك » :

— « كلاً » . فقال « بطرس » :

— « ولماذا ؟ » فقال « جاك » :

— « إنِّى مشغولٌ عنك اليوم . إلى اللقاء » .

وخفَّ « جاك » مسرعاً إلى الباب ، وكان قد سمع باب حجرة « أرمان » يُفتح ويُغلق ، فنزل إلى الشارع ولقي الفتاةَ التي صحبها إلى مكتب صديقه فقال لها :

— « عذراً يا آنسة ! » فقالت له وهي متضايقة متبرِّمة :

— « لقد ودّعتك يا سيدي منذ هنيهة ولم أقل لك إلى اللقاء » .

فاحمرّ وجه « جاك » وقال :

— « أتستطيعين يا آنستي أن تدلّيني على مطعم من المطاعم ؟ إني وحيدٌ في " باريس " و . . . »

فقاطعته الفتاة مغضبة وقالت :

— « أنتَ مخطئٌ في ظنّك يا هذا . . . لقد كنتَ منذ قليل جافّاً غليظاً وأراك الآن جسوراً وَقِحاً . . . »

فقال « جاك » :

— «عُذْراً يا آنسة، لا تعدّيني جسوراً وَقِحاً بل أبْلَهَ يسيءُ التصرُّف، ولن ينقذني من حكمك عليّ إلا صراحتي ... لم ألْقَكِ الآنَ اتفاقاً ومصادفة، بل قَصْداً وعَمْداً فقد سمعتك تنصرفين من حجرة السيد "أرمان" فلحقتُ بك وفي نيّتي أن أدعوَكِ لتناول الطعام ، ولكنني لم أكن كيِّساً في توضيح نيّتي ودعوتي » . فقالت الفتاة :

— « أكنتَ تعتقد أني أقبلُ دعوتَك » . فقال « جاك » :

— « نعم ولو على سبيل الرأفة والشفقة . . . آه لو تعلمين شقاءَ الإنسان عندما يكون وحيداً فى الحياة ! »

فهزّت الفتاة كتفيها فاستأنف « جاك » يقول :

— « نعم إنى لأحسب أنك أنتِ أيضاً تتناولين طعامك وحيدةً منفردة، ولكنك قد تكونين تعوّدت هذا ... فرُحْماك لا ترفضى دعوتى . . . »

وبدأت الابتسامة تخطُّ خطّها الرقيق على شفتى الفتاة فقالت :

— « أقبلُ دعوتك يا سيدى ... إن مرافعتك أعجبتنى وسرّتْنى . . وسوف أكونُ صريحةً معك كما كنتَ صريحاً معى ، فالسببُ الذى حملنى على قبول دعوتك هو الاقتصادُ وتوفير الفرنكات القليلة التى كنتُ سأنفقها على غدائى ، وهو وفرٌ كبيرٌ بالنسبة إلى رقّة حالى » .

فخطف « جاك » الفرصةَ خَطْفاً ، واستوقف سيارة فصعدا إليها وقال للسائق :

— « إلى مطعم " كافى دى بارى " » . فقالت الفتاة معترضة :

— « كلاّ . إنه مطعمٌ فخمٌ أنيق، ولسوف ينظرُ إلىّ الناس شَزراً، فملابسى الخشنة ملابسُ الشتاء وإن كنا بعدُ لا نزال فى فصل الصيف ». فقال « جاك » :

— « سمعاً وطاعة يا آنسة سنختار مطعماً آخر » .

وأنهى إلى السائق بالمسير إلى مطعم آخر ذكره له وكان مطعماً هولندياً

صغيراً جميلاً كان « جاك » قد تناول فيه الطعام فى مرّةٍ سابقة .

وارتاحت الفتاة إلى هذا المطعم فجلست إلى المائدة فى سرور ظاهر فقال لها « جاك » :

— « أمسرورةٌ أنت يا آنسة ؟ » فقالت الفتاةُ :

— « كلّ السرور » .

وقضيا معاً وقتاً طيباً فى تناول الطعام وفى تجاذب أطراف الحديث ، فقص عليها قصص البحر وغرائبه ، وعلم منها أنها تزاول الرسم والكتابة ، وأنها تساعد أحياناً بعض الكُتّاب فى إعداد مصادر البحث لمؤلفاتهم وهذا ما يفسر زيارتها لمنزل السيد « إدمون » فى هذا الصباح ثم قالت :

— « كان الرجل من الكتاب الأدباء، وكان قد عهد إلىّ فى إعداد المصادر لموضوع من الموضوعات ، ولكننى كنت منحرفة المزاج فى الأسبوعين الماضيين فتأخرت عليه ، ولقد سلمتُ عملى إلى السيد " أرمان " ووعدنى بأن يرسله إليه ، غير أننى سأضطر إلى الانتظار بعضَ الوقت لأظفرَ بأجرى » .

فهمَّ « جاك » أن يسألها سؤالاً ، ولكنه خشى عاقبةَ السؤال ، فتطلّع إليها وتطلعت إليه وقرأ كلٌّ منهما ما يدور بخَلَد الآخر ، فقد أراد « جاك» أن يقرضها المبلغ المنتظر ، وأرادت هى أن تعتذر عنه شاكرة فقالت :



— « شكراً لك وألفَ شكر فسوف أنتظر » .

وكانت الساعةُ قد قاربت الثانيةَ بعد الظهر ، فنهضت الفتاةُ وودّعت « جاك » طالبةً إليه أن لا يكلف نفسه مؤونة صحبتها ، فأذعن على مضَض . ونظر إليها وهى منصرفة وقد بدأ يشعر بميل شديد إلى هذه الفتاة الغريبة .

بقى « جاك » قليلاً فى المطعم يدخّن سيجاره . ثم انصرف مفكراً مهموماً ، فلقاء هذه الفتاة الكريمة النفس النقية الذيل ، قد عصف به عصفاً وجعله أضيَق صدراً بالوحدة التى يعانيها .

وجال « جاك » فى الشوارع على غير هُدًى حتى الساعة الثالثة والدقيقة الثلاثين . وعاد بعد ذلك إلى منزله محتاجاً إلى راحة الجسم والبال ، وعندما دخل الغرفة التى استقبل فيها منذ ساعات زائرته الغريبة التى يجهل عنها كل شيء حتى اسمها : علق نظرُه بالمقعد الذى جلست فيه ، وبالمنضدة التى أمامها ، فرأى أن الفتاة قد نسيتْ على المنْضَدة حقيبةَ يدها ، فأخذها بين يديه وفتحها بحركةٍ عَفْوِيَّة دون أن يقدر فى نفسه أنه يرتكب عملاً لا يليق بكرام الناس ، فوجد فيها منديلاً ؛ ومحفظةً صغيرة للنقود ، ومفكرة للعنوانات . فقلب المنديل بين يديه فرأى فى أحد جوانبه حرفين مرسومين هما : م . ر . فما من شك أنهما الحرفان اللذان يبتدئ بهما اسم الفتاة واسم أسرتها .. ولكنهما لم يكشفا له ما يجهل من أمر الفتاة . وفتح مفكرة العنوانات وقلب صفحاتها فقرأ فيها أسماء بعض الكتّاب والصحفيين والناشرين

فبقى عليه أن يفتح محفظة النقود فوجد فيها قليلاً من العملة الفضية .
ووجد فى بعض جيوبها أربع بطاقات كتب عليها :

ماری ریشارد
شارع جان رولان رقم ١
مونروج

فانطبع الاسم والعنوان على الفور فى ذاكرته وأخذ الحقيبة ووضعها فى خزانته بالقرب من قطعة الصخر التى جلبها معه من « إسلندة » وشرع يفكر فيما هو فاعل .

خَطَرَ له أولاً أن يكتب لصاحب السفن « هارؤر » ويطلب إليه امتداداً لعطلته ، وقرر أن يقضى بقية الأيام منها فى شىء غير اللهو والفُرْجة فقد أصبح يَعافُهما .

ومضى به التفكير إلى الزّواج، فساءل نفسه أتُرَى هذه الفتاة تقبله زوجاً لها ؟ و بقى السؤال حائراً دون جواب . ثم جلس إلى المنضدة وكتب كلمةً عَجْلى إلى « هارؤر » ثم تذكر أنه مدعو لتناول الشاى عند سيدة تدعى «دوبريف» كان صديقه «بطرس» قد قدّمه إليها فى أحد الأيام .

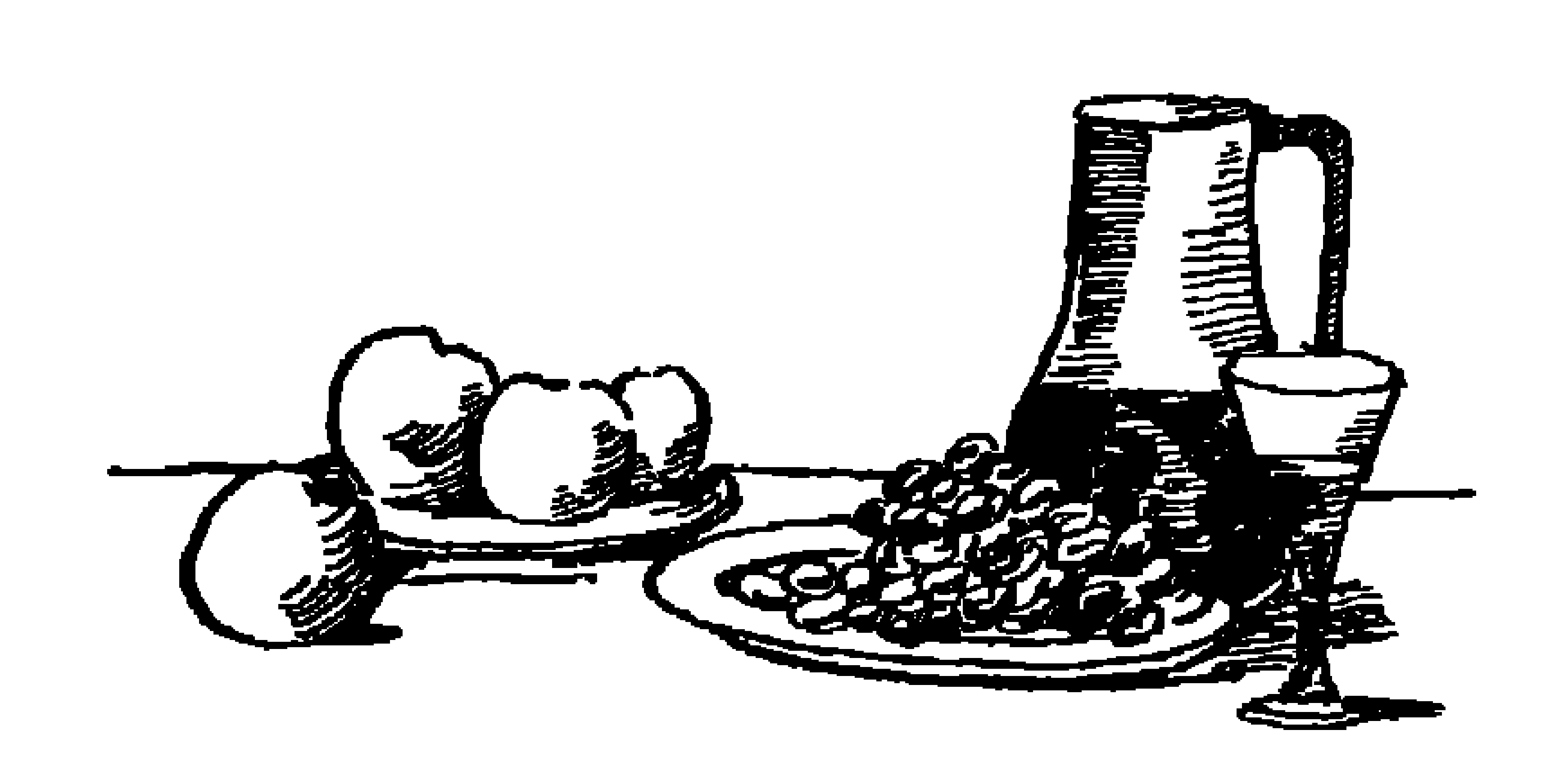
وقبل أن يغادر المنزل ، فتح خزانته وغير ربطة عنقه . وألقى نظرةً أخيرة على حقيبة اليد ثم على قطعة الصخر الإسلندية . فتناولها بيده ودسّها فى جيبه دون ما غايةٍ ولا سبب .

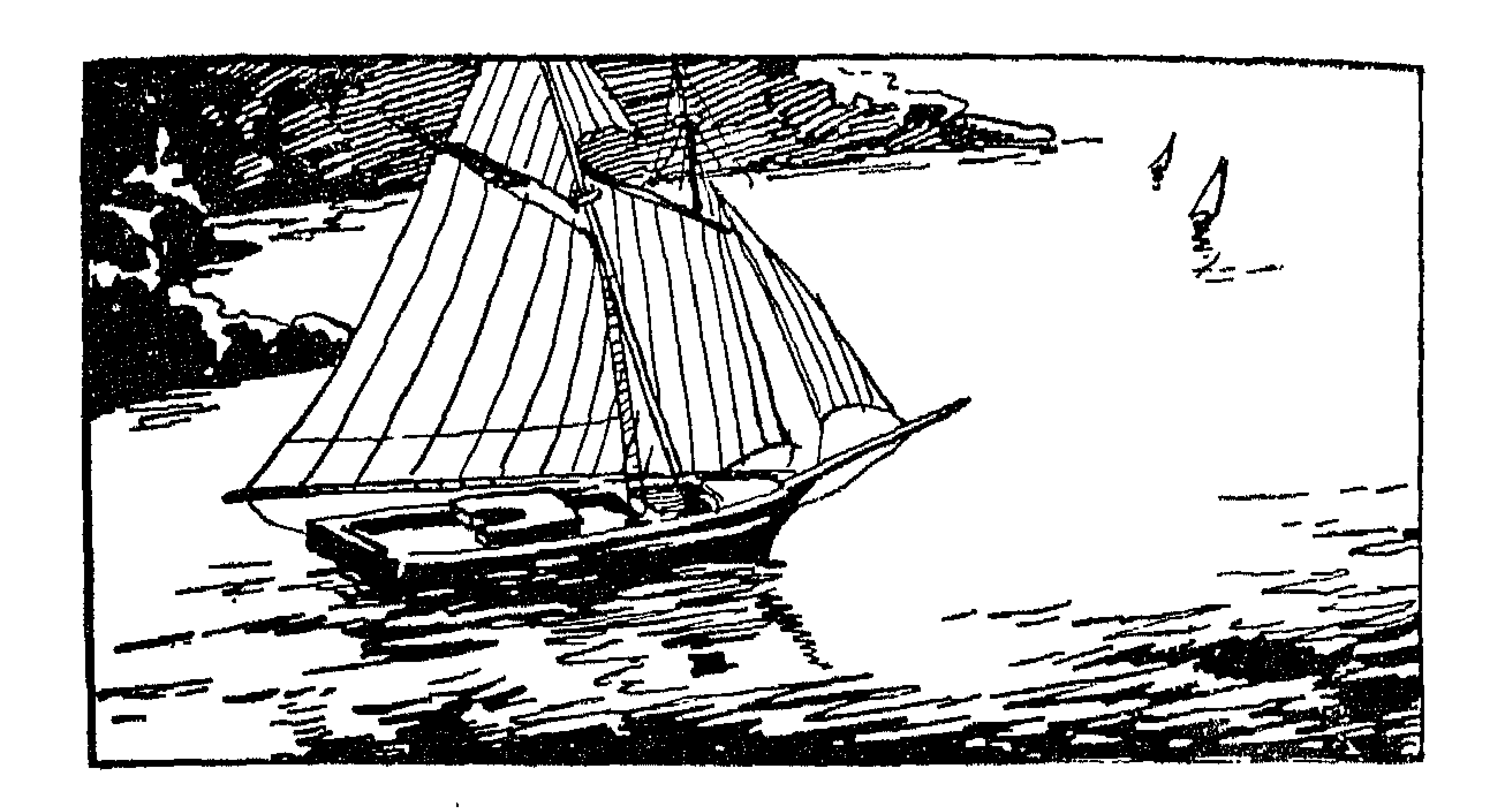
ولقى بوّابة المنزل فى طريقه ، فأخبرها أن الفتاة التى زارته فى الصباح قد نسيت عنده حقيبةَ يدها ، فإذا جاءت تطلبها . . . » فقاطعته البوابة قائلة :

– « أسيّدى واثقٌ برجوع الفتاة ؟ » فقال « جاك » :

– « لست أدرى ، ولكننى أعتقدُ ذلك ، وكيفما كان الأمر فهاهوذا مفتاح منزلى . فإذا قدمت الفتاة فارجى منها أن تنتظرنى ، فسوف أعود فى نحو الساعة السادسة ولا تنسىَ أن تقدّمى لها فنجاناً من الشاى » .

وسار إلى صندوق البريد فوضع فيه الرسالة التى كتبها إلى « هارفر » ومضى قاصداً منزل السيدة « دوبريف » . . .





٦

كانت السيّدة « دوبريف » أرملةً حسناءَ على شيء من الثراء ، فمنذُ عرفت « جاك » أعجبتْ بمظهره ومخبره وأصبحت تغتبطُ برؤيته وحديثه .

فلما أقبل « جاك » يزورها خفّت إلى استقباله فرحةً مستبشرة ، وقدّمت إليه شاباً كان يزورها فى تلك الأثناء وكان من موظفى المتحف فى القسم الخاص بعلم طبقات الأرض .

ودارت أكوابُ الشاى على الحاضرين ، واستسلم هؤلاء الثلاثة إلى مختلف الأحاديث ، ولئن كان « جاك » مُعْجَباً بجمال السيدة «دوبريف »

لقد كان يرثى لعقلها الصغير صِغَرَ عقل العصفور .

وعلى حين غرّة وضع « جاك » إبهامه فى جيب صداره ، فلمس قطعة الصخر الإسلندية فيه ، فضحك ضحكة أليمة ثم أخرجها وقدمها إلى الشاب وقال :

ـ « هل لك يا سيدى أن تقول لى عن طبيعة هذه الحصاة ما دمتَ من علماء طبقات الأرض ؟ »

فمدّ الشاب يده وتناول قطعة الحجر من يد « جاك » وقلّبها بطناً لظهر ، وأخرج سكّيناً صغيرة من جيبه وأخذ يحكّ بحدّها صفحة الحصاة ، ثم بلّ بريقه المكانَ المحكوك ، وطفق يفحصه فحصاً دقيقاً وانتهى قائلاً :

ـ « إنّها قطعة من الدّهْنَج » . فصاح « جاك » :

ـ « إنها قطعةٌ مِمَّاذا ؟ » فقال الشاب :

ـ « من الدهنج . » فقال « جاك » :

ـ « وكم تساوى ؟ » فقال الشاب :

ـ « لستُ أدرى على الضبط ، فالجوهريُّ أعرَفُ منى بالقيمة ، فالدّهْنَج ضرب من ضروب الألماس الذى يستعملُ فى الحلىّ الرخيصة » .
فقال « جاك » :

ـ « وعلى هذا ألا تدرى كم يساوى الطنّ الواحد منه ؟ »
فأغرق الشاب فى الضَّحِك وقال :

— «كم يساوى الطن ؟ ! إن الدَّهْنَج يا سيّدى لا يباع بالطن ، كما أن الألماس الحرّ لا يباع بالقنطار » .

فقال « جاك » :

— « إذن فسِّرْ لى يا سيدى ما معنى الدَّهْنَج وما هو » .

فشرع الشابُّ ، وهو معجبٌ بنفسه وعلمه : يحاضرُ سامعيه فى أنواع الحجارة الثمينة ، وفى أكسيد النحاس ومشتقّاته ، وكان « جاك » يستمع للشاب بكل جارحة من جوارحه ، ويسجّل فى ذهنه كلّ ما يسمع ، ويتطلّع أحياناً إلى السيدة « دوبريف » ويسرّه أن يراها على جهل شبه مُطْبَق بما يقال . فصاح « جاك » بالفتى فى آخر الأمر وقال :

— « أتعتقد إذن أن الدَّهْنَج ذو قيمة ؟ » فقال الشاب :

— « يزداد قيمةً إن كانت صِفاحُ الحجارة منه كبيرة الحجم ، فالمعروف أن القيصر " نقولا " أهدى للرئيس " فور " منضدةً مصنوعة من قطعة واحدة من هذا الحجر ، ويقال إنها لا تقدر بثمن . أما إذا كان الدَّهْنَج حجارةً صغيرة كالتى معك فلا تساوى كبير ثمن » .

واقتنع « جاك » بما سمع ، فنهض مستأذناً فى الانصراف ، ونزل درجات السلّم أربعاً أربعاً ، وطار إلى أوّل جوهرىّ لقيه فى طريقه ، فدخل الحانوت ووضع قطعة الحجر على منْضدة الجوهرىّ وقال :

— « هذا ماذا ؟ وكم يساوى ؟ »

فنظر إليه صاحبُ الحانوت مدهوشاً وقال :

— « هذا دَهْنج . . . واعلم يا سيّدى أنك فى حانوت جوهرىّ ، فإن شئتَ أن تعرف قيمة هذا الضربْ من البَلاط فاسأل فيه أحدَ البنائين. مع السلامة يا سيّدى » .

والتقط « جاك » قطعة الحجر ومضى يذرع الشوارع باحثاً عن جوهرىّ آخر ، فمرّ فى طوافه ببائع ساعات قديمة ، فدخل الحانوت وسأل صاحبه :

— « أتشترى يا سيّدى حجارة الدَّهْنَج ؟ » فقال الرجل :

— « إن السوق راكدة يا سيدى . . . » فقال « جاك » :

— « وكم تساوى ؟ » فقال الرجل :

— « ليس لها سعر محدود ، فالدَّهْنَج عندما كان لا يُسْتخرج إلاّ من "روسيا" كان غالى الثمن ، وكان يساوى الكيلو الواحد منه خمسين فرنكاً ، أما وقد بدأوا يستخرجونه من مناجم " أستراليا " فسعره قد هبط وأصبح يساوى الرطلُ منه الآن نحو سبعة فرنكات ، فكم عندك منه يا سيّدى ؟ »

فأخرج « جاك » القطعة من جيبه فوزنها التاجر وقال :

— « أشترى منك هذه القطعة بنصف فرنك » . فقال « جاك » :

— « لا أبيعها بألف فرنك » . فقال التاجر :

— « أنت إذن مجنون . . . حَسَن . . . أعطيك بها فرنكاً » .

ولكن « جاك » كان قد أصبح خارجَ الحانوت ومشى وهو يحدّث نفسه قائلاً : الكيلو بعشرة فرنكات . . . أى أن الطن بعشرة آلاف فرنك . . . ليتنى كنت حيًّا قبل الكشف عن مناجم « أستراليا » . . . ولكن هذا حسبى . كتبتُ إلى « هارثر » طالباً منه أن يَفْسَحَ لى فى العُطْلة ، غير أنه سينتظر طويلاً . . . بقى أن أعرف كيف أستردّ أسهم الشركة والسندات . . . إنها الآن لا تساوى شيئاً فقيمتها صفرٌ إلى الشمال . . . فلو ذاعَ الخبر خسرتُ كل شىء فلأعملنّ إذن فى حكمةٍ وحَذَر . . .

وفكّر فى صديقه « بطرس » وقرّر أن يشاوره فى كيف يسترجع الأسهم والسندات دون أن يُطْلِعَه على السبب الحقيقى . . . وتمنى لو كان سأل الفتى العالم بطبقات الأرض مزيداً من العلم والبيان ، وتذكّر قول الفتى أن الدَّهْنَج مزيجٌ من الكبريت والنحاس ، فماذا زعم إذن « هارثر » منذ خمس سنوات عندما استجوبه المحقق ؟ ! وحتى لو كانت طبقة الكبريت غير كبيرة فالحجر يساوى ثمناً من الأثمان . . .

وثقلت وطأة الأفكار عليه ، فعاد إلى منزله فرأى الباب نصف مفتوح ، فدخل وكانت الفتاة التى لقيها فى الصباح تكاد تنتهى من شرب الشاى ، فخفق قلبه سروراً واضطراباً .

فنهضت « مارى ريشارد » تستقبل « جاك » مبتسمةً فصافحها وهو يحاذر أن يسقط من شدّة الاضطراب فقال لها :

— « عندى أنباء سارّة سأفضى بها إليك » . فقالت ولم تُدْرِك وأنّى لها أن تُدْرِك أىّ خبر سار سينهيه إليها :

— « أجّلْ أخبارك السارة إلى وقتٍ آخر ، وتَفَضَّلْ بإعطائى حقيبةَ يدى فى الحال » . فقال :

— « أرجو منك . . . » فقاطعته قائلة :

— « إنى مرتبطةٌ بموعدِ عمل ، ولا أستطيع البقاء دقيقةً واحدة ، فهل لك يا سيّدى أن تردّ إلىّ حقيبة يدى ؟ » فقال :

— « إنها فى خزانتى ، ولكننى أريد أن أحدّثك . . . وأن أقول لك . . . » فقاطعَتْه ثانية وقالت :

— « حقيبة يدى يا سيّدى » . فقال :

— « تريّثى قليلاً يا آنسة واعلمى . . . » فقاطعته ثالثةً وقالت فى لهجة جادّة :

— « أتريد يا سيّدى أن تردّ لى حقيبة يدى ؟ »

فتردّد « جاك » قليلاً ثم مضى إلى الخزانة فأخرج منها الحقيبة ووضعها على المنضدة ، وأسند ظهره إلى الموقد وقال :

— « ها هى ذى حقيبتك يا آنسة ، وها هوذا الباب ، وها أنا ذا فى الجانب الآخر من الحجرة ، فلن أعترض سبيلك إذا شئت الانصراف . . ولكن أرجو أن تستمعى إلىّ قليلاً . . . إن مركزى المالى قد تغيّر منذ



تركتني بعد الغداء ، فأرهفي إلى سمعك ولو دقائق قصيرة . . . »
فنظرت الفتاة في ساعتها وقالت :
— « أمنحك ثلاث دقائق لتفضي إلى فيها بما تريد فلا تضيع الوقت » .
فبدأ « جاك » حديثه بأن قص عليها كيف التحق بالعمل في السفن التي تعمل في صيد الأسماك وكيف جاء إلى « باريس » ليقضي فيها بعض الوقت لاهياً متمتعاً بمباهجها ، فلما لقيها بعث يطلب من صاحب السفن التي يعمل عنده أن يطيل أمد عطلته . . . فقاطعته قائلة :
— « لقد استغرق حديثك الدقائق الثلاث ... ثم ما شأني أنا وهذا الذي تحدثني به . . . » فقال :
— « أريد بذلك أن أزداد بك معرفة ومودة » . فقالت :
— « وفيم هذا كله » . فقال وقد صبغت خديه حمرة الحياء :
— « لأني أردت أن ألتمس منك أن تصبحي زوجتي . . . لم أعد ذلك البحار الذي قاسى شظف العيش . . . لقد هبطت على الثروة . . . فأصبحت من أرباب الملايين » .
فنهضت الفتاة متذمرة وقالت :
— « أما أنا فلا أريد أن أزداد بك معرفة . . . ثق ياسيدي أنك في حاجة إلى عقلك الذي فارقك . . . لم أكن حكيمة في تصرفي إذ قبلت

دعوتَك للغداء ، ولست أدرى ما الذى جَنَيْتُه عليك لتبادِرَنى بهذا المزاح الثقيل . . . الوَداع يا سيّدى ! »

وخرجت الفتاة ولم يستطع « جاك » أن يُبْدى حراكاً ، فبقى مسمّراً فى مكانه ، حتى إذا رجع إلى نفسه بعدَ قليلٍ ، لام نفسه أشدَّ اللوم على غباوته، وعلى الطريقة الخرقاء التى حدّث بها الفتاة فظنَّتْه معتوهاً أو سكرانَ أو مجنوناً . . .

وفى نحو الساعة السابعة قدم عليه صديقه « بطرس » فرآه على مثل ذلك الاضطراب فقال له :

— « ما بك يا " جاك " ؟ ما هذا الاضطرابُ الذى يبدو عليك ؟ »
فقال « جاك » :

— « تراوِدُنى فكرةٌ أنا جادٌّ فيها كلَّ الجدّ، وليس لى مَنْ أعتمدُ عليه فى تحقيقها سواك . . . أريد أن أشترى بعضَ الأسهم والسندات. . . أتذكر الشركة الوهمية التى أسسها والدى لاستغلال مناجم الكبريت ؟ »
فقال « بطرس » :

— « نعم أذكر » . فقال « جاك » :

— « أتعرفُ كم بيع منها من الأسهم ؟ » فقال « بطرس » :

— « لم يُبَعْ منها إلا السندات وبعض الأسهم » . فقال « جاك » :

— « ألم يكن فيها حصص تأسيس ؟ » فقال « بطرس » :

— « بطبيعة الحال . ويمكننى أن أقفَ على كل هذا إذا كنت تريد أن تعرف ذلك » . فقال « جاك » :

— « لا أريد أن أعرف فقط بل أن أشترى . . . وأعتقد أن مجموع حصص التأسيس والأسهم والسندات لا تساوى الآن شيئاً ، فهى لا قيمة لها ، أفترانى أستطيع شراءَها كلها بثلاثة آلاف فرنك » .

فقال « بطرس » :

— « لستُ أدرى . . . إنها الآن لا تساوى فرنكاً واحداً ، ولكن عندما نبدأ بالشِّراء فسوف يرتفع الثمن حتماً فماذا تريدنى أن أفعل إذا زاد الثمن عن هذا المبلغ الذى تحدّده ؟ » فقال « جاك » :

— « تصرَّفْ كما تهوى . فاشْتَرِ أوّلاً حصص التأسيس ثم السّندات ثم الأسهم إذا استطعت ، وحوِّل كل ذلك إلى اسمى » . فقال « بطرس » :

— « أأكون شريكك فى هذا ؟ » فقال « جاك » :

— « إذا رغبت ولكن الأمر لا يخلو من مجازفة » . فقال « بطرس » :

— « أتعتقدُ بوجود الكبريت ؟ » فقال « جاك » :

— « ليس هذا الذى يهمّنى ... فلا تسألنى فلن أجيبَ عن أسئلتك » . فقال « بطرس » :

— « حسن . . . فلنسدل الستار على الموضوع . . . سأوافيك يوم

الأربعاء القادم بالخبر اليقين ، فهيَّا نتناول طعام العشاء ونقضى السهرة فى بعض المسارح » . فقال « جاك » :

– « حسْبُكَ تناول العشاء فإنى فى حاجة إلى النوم والراحة » .

وفى الساعة العاشرة كان « جاك » مستلقياً على سريره يفكّر ويحلُم .





٧

استيقظ « جاك » فى صباح اليوم التالى مبكِّراً ، فارتدى ملابسه وسارع إلى الحىّ الذى تقطن فيه « مارى ريشارد » وركب إليه قطار المترو الذى يخترق « باريس » تحت الأرض ، فنزل فى المحطة التى تفضى إلى « مونروج » وأخذ يجول فى رصيفها .

وفى نحو الساعة التاسعة لمح الآنسة « مارى ريشارد » مقبلةً إلى المحطة لتستقل منها قطار المترو ، فهُرِع إليها وحيّاها فحيّته وبادرها قائلاً :

— « جئتُ أعتذرُ إليك يا آنسة عمّا فرَط منى مساء أمس» . فقالت الفتاة وهى منخفضة الرأس :

— « بل علىّ أنا أن أعتذر عمّا بَدَرمنى من كلماتٍ قاسية . فاقبلْ

معاذيرى يا سيدى . . . والآن أستودعك الله » .

وما كادت تتم عباراتها حتى قفزت إلى قطار المترو الذى كان قد بدأ يتحرك .

ولم يغضب « جاك » من تلك المقابلة وذلك الوداع المفاجئ ، بل رضى من الفتاة بالاستماع له واكتفى بذلك نتيجةً سارة .

وصَعِدَ « جاك » من محطة المترو واتجه إلى حىّ « مونروج » فوقف عند المنزل المرقوم برقم ١ « من شارع جان رولان » وكان يتألف من طبقتين ، وتحيط به حديقة واسعة ، فَقَرَعَ الباب ففتحته له خادمةٌ صغيرة فقال لها :

— « أعندكم يا صغيرتى حجرةٌ للإيجار ؟ »

فأدخلته الخادمة إلى بهوٍ أشبه بمرسم ، فلقى فيه صاحبة المنزل وكانت سيدة عبلة الجسم سَمْحَة الوجه ، فأدارت فيه نظرها فاحصةً ممتحنة فنجح « جاك » فى الامتحان وسمعها تقول له :

— « عندى غرفةٌ فى الطبقة الأولى » .

فاستأجر « جاك » الغرفة دون أن يراها ، واتفق مع صاحبة المنزل على الانِتقال إليها فى يوم الاثنين المقبل ، ثم ودّعها والفرحُ يُقيمه ويُقْعِده على أن أصبح جاراً لحبيبته « مارى ريشارد » .

وفى أثناء عودته اشترى بعض صحف الأزياء ، وقضى ساعاتٍ يتصفحها

ويقرؤها على أمل أن يرى فيها توقيع « ماري ريشارد » .

كان اليوم يوم سبت . حتى إذا كانت الساعة السابعة من صباح يوم الاثنين انتقل « جاك » إلى مسكنه الجديد . فلقى في البهو « ماري ريشارد » وهي تلبس قُفَّازها . فامتعضتْ عندما رأته . فاقترب منها وحيَّاها وقال :

— « نعم . أنا هو . لقد أصبحتُ جارك بعد إذ عرفتُ عنوانك ؛ فاسمحي لي أن ألقاك حيناً بعد حين » . فقالت :

— « إن هذا هو الاضطهاد بعينه يا سيِّدي ! » فقال :

— « كلا . إنك لم تفهميني في ذلك اليوم . . . حَسِبْتِني سكرانَ أو مجنوناً . وما كنتُ لا هذا ولا ذاك ؛ وإنما كنتُ ثائرَ الأعصاب قليلاً مهتاجاً من الحظّ الحسن الذي هبَط عليّ . . . فاعذري سماجتي » .

فلم تَنْبِس الفتاةُ بِبِنْتِ شَفَةٍ فقال لها :

— « توسلتُ إليك أن تُنْقِذيني من حياتي الجوفاء الفارغة » . فقالت :

— « أنا ؟ وكيف أنقذك ؟ » فقال :

— « بسماحِك لي أوّلاً أن أصبح صديقك إلى اليوم الذي ترضينني لك فيه زوجاً » .

كانت الصَّراحة باديةً على كلّ مَقْطَع من مقاطعِ كلماته . وظاهرةً في صوته المرتجف ونظرته البريئة ؛ فأدركت الفتاة أن محدِّثها ليس من الشباب العابثين فقالت له :

— « لا أرى كيف أستطيعُ أن أنقذَك من الحياة التى تَصِفُها . . . وهبْنى رضيتُ بذلك فلى عليك شرطٌ لا أحِيدُ عنه . . . وهو أن لا تحدِّثنى أبداً فى الزّواج . . . فلستُ راغبة فيه » . فقال « جاك » :

— « ولماذا ؟ » فقالت :

— « لأنىّ أوّلاً لا أرى فيك الزوجَ الملائم ، فظهرك إن دلَّ على القوة والبأس . فمخبرك يدل على نقص فى الإرادة . . . ثم إنك أسمرُ البشرة وأنا إن تزوّجتُ فلن أتزوّج إلا رجلاً أشقر » .

فاقتنع « جاك » بما سمع وصافحها فانصرفت .

وكثر عددُ الأيام التى كان « جاك » يلقى فيها « مارى ريشارد » دعاها ودعا معها صاحبة المنزل غير مرّة إلى سماع الموسيقى أو شهود التمثيل . فاستردّ بصحبته لها وحديثه معها ما كان قد فقده من عادات المجتمع الرفيعة . وقَدَّرَتْهُ هى حقَّ قَدْره فمالت إليه وأعجبتْ به . وأخذت تستمعُ لأحاديثه فى نشوة ومتعة روحية كبيرة .

وتلقَّى « جاك » ذاتَ يومٍ رسالةً من صديقه « بطرس » يدعوه فيها إلى لقائه . فذهب إليه فأخبره « بطرس » أنه كان للشركة ٢٠٠ حصة تأسيس . وأنه اشتراها كلها بلا ثمن . فسأله «جاك» عن واقعة الحال فقال :

— « كنت مدعوّاً ذات ليلة عند السيدة « دوبريف » فلقيت هناك سمسارين من سماسرة القراطيس المالية . فجاء ذكرك عرَضاً فاغتنمتها

فرصة تكلمتُ فيها على الشركة الوهميّة لاستغلال مناجم الكبريت، وعلمت أن لدى كل من السمسارين مئة حصة تأسيس فسألانى هل من جديد فى الأمر ؟ فقلت لا أعلم . فرضيا أن يلاعبانى عليها بالورق فكسبتُها وها هى ذى » .

واتجه « بطرس » إلى خزانة فى مكتبه ، واستخرج منها تلك الأوراق وقدمها إلى « جاك » . فشكره «جاك» شكراً جزيلاً ثم سأله : والسندات؟ فقال :

— « هناك مئة سند اكتتب بها كلها الربان العجوز ، أما الأسهم فلم يُبَعْ منها إلا ٢٣ سهماً اشتراها أيضاً ذلك الربان » . فقال « جاك » :

— « وفى حوزة مَنْ هذه السندات والأسهم ؟ » فقال « بطرس » :

— « فى حَوْزة ابنةِ الربان العجوز، وهى فتاةٌ على ما قيل لى تكسبُ رزقَها من عملها » . فقال « جاك » :

— « وهل تقطن "باريس" ؟ » فقال « بطرس » :

— « أجل . وسأعرف غداً عنوانَها » . فقال « جاك » :

— « أيخالجك الأملُ فى الحصول على هذه الأوراق ؟ » فقال « بطرس » :

— « أعتقدُ ذلك . فثلاثةُ آلاف فرنك أجدَى عليها من أوراقٍ لا قيمة لها الآن . إن اسم هذه الفتاة . . . »

فقاطعه « جاك » قائلاً :

— « لا تَفُه باسمها . . . إنى نسيتُ اسمَ والدها . . . ولا أرغبُ فى معرفة اسمها . . . دَعْها فى عالمِ الظلام . . . على أننى أوَدُّ أن أبذلَ لها أكبر قسط من العون ما دامت فتاةً بائسة . . . فإنى مستطيعٌ متى عدتُ إلى عملى أن أدَّخر فى هذا العام ألفين من الفرنكات ، فيمكنك إذن أن ترفعَ لها المبلغ إلى خمسةِ آلاف فرنك . . . ثلاثة آلاف للسندات وألفين للأسهم تُدْفَعُ جميعها على قِسْطين » . فقال « بطرس » :

— « حسن . عُدْ إلىّ يوم السبت تجدْنى على الأرجح قد ظفرتُ بهذه الأوراق » .

وسكت « بطرس » قليلاً ثم قال :

— « نسيتُ أن أخبرك أن السيدة " دوبريف " متضايقةٌ من سكوتِك عنها وانقطاعك عن زيارتها ، فقد ذهبتْ تزورك يوماً فقيل لها إنك انتقلتَ إلى مسكن آخر ، وهى ترغب فى معرفة عنوانك الجديد » .

فقال « جاك » :

— « قل لها إنك تجهل عنوانى ، وقل هذا أيضاً لجميع الرفاق » . فقال « بطرس » :

— « لكَ ما تريد » .

وخرج الصّديقان يتناولان الطعام معاً ، وقصَ « جاك » على صديقه

فى أثناء تناول الطعام قصّة حياته على ظهر السفن وفوق مَتْن البخار . ثم افترق الصديقان على وَعْدٍ بلقاءٍ قريب .

ولم يدرِ « جاك » سبباً يحدو السيّدة « دوبريف » إلى أن تسأل عنه وتزوره فى منزله . وأنَّى له أن يدرى أن وكيل أعمالها قد أثار ظُنُونها لما علِمَ بحصُول « بطرس » على حصص التأسيس وسعيه للحصول أيضاً على السندات والأسهم . وأنه أدخل فى روعها أن وراء الأكمة ما وراءَها .

والواقع أن السيدة « دوبريف » عندما أنهى إليها وكيل أعمالها بظنه وريبته ؛ تذكرت زيارة « جاك » لها منذ أيام وتذكرت معها الحديثَ الذى دار بينه وبين الشابّ العالِم بطبقات الأرض حينما أراه قطعة الدَّهْنَج التى كانت فى جيبه . فأيقنت تمام اليقين أن « جاك » كان قد رحل إلى « إسلندة » . وعاينَ أرضَ المناجم . وأجرى عليها بعضَ الأبحاث . وتأكد من غناها بالكبريت . فجاء يجمع أوراقَ تلك الشركة ، فَعَهِدَ إلى صديقه « بطرس » فى القيام بذلك . وبقى هو متوارياً خلف الستار .

وأرسى هذا الاستنتاج فى ذهنها انقطاع « جاك » عن زيارتها وزيارة أصدقائها الذين عرفهم . وهجرانُه منزلَه إلى عنوانٍ مجهول . فآلتْ على نفسها أن لا تفوتَها هذه الفرصة الذهبيَّة ؛ وأن تسعى إلى معرفة الشخص الذى يمتلكُ أسهمَ الشركة وسنداتِها لتشترِيَها منه .

واتفق أن كان « جاك » يوماً فى أحد المقاهى . يشْرَبُ القهوة ويطالع الصُّحُف انتظاراً للموعد الذى ضَرَبه للآنسة « مارى ريشارد » فى المطعم

الهولندى . فقد كان دعاها لتناوُلِ طعامِ الغداء معاً . بعد أن تَفْرَغ من مهمتها فى دار الكتب الوطنيّة ، فرمى « جاك » بنظَره عفواً إلى منْضَدة قريبة منه ، فرأى السيدة « دوبريف » تحدث سيدةً أخرى إلى جانبها . فالتقتْ نظراتُه بنظراتها . فنهضتْ هى على الفور وأقبلتْ عليه تحييه وتقول له :

— « أأصبحنا لا نلقاك يا سيِّد " جاك " إلاّ فى المقاهى ؟ ! »

فتبسَّم « جاك » ابتسامةً مُغْتَصبة ، فى حين جلست السيِّدة « دوبريف » وقالت له :

— « متى رجعت ؟ » فقال « جاك » :

— « لم أرحل قط عن " باريس " » . فقالت :

— « فلماذا إذن احتجبتَ وانقطعتَ عن زيارتى ، وأنت تعلم أنى سعيتُ إليك فى منزلك » . فقال :

— « لا . لستُ أعلم . لقد انتقلتُ إلى منزلٍ آخر » . فقالت :

— « وأين تقطن الآن ؟ » فقال :

— « فى إحدى الضَّواحى » . فقالت :

— « فى أيَّة ضاحية ؟ »

فالتزم « جاك » الصمت ، فقالت مستأنفة :

— « أصبحت يا سيِّدى البحّار رجلاً تكتنفُه الأسرار ... ألم تخبر

صديقك " بطرس " بعنوانك الجديد ؟ » فقال :

— « وهل سألتِه إيَّاه ؟ » فقالت :

— « نعم . هل رأيتَه يومَ الأربعاء الماضى ؟ هل نجح فى الحصول على جميع السندات ؟ »

فاضطرب « جاك » ولكنَّه تملَّك عواطفه وقال :

— « أيَّة سندات ؟ » فقالت :

— « سندات مناجم الكبريت " بإسلندة " . . . »

فعاود « جاك » الاضطراب ، فلمحت اضطرابه وقالت :

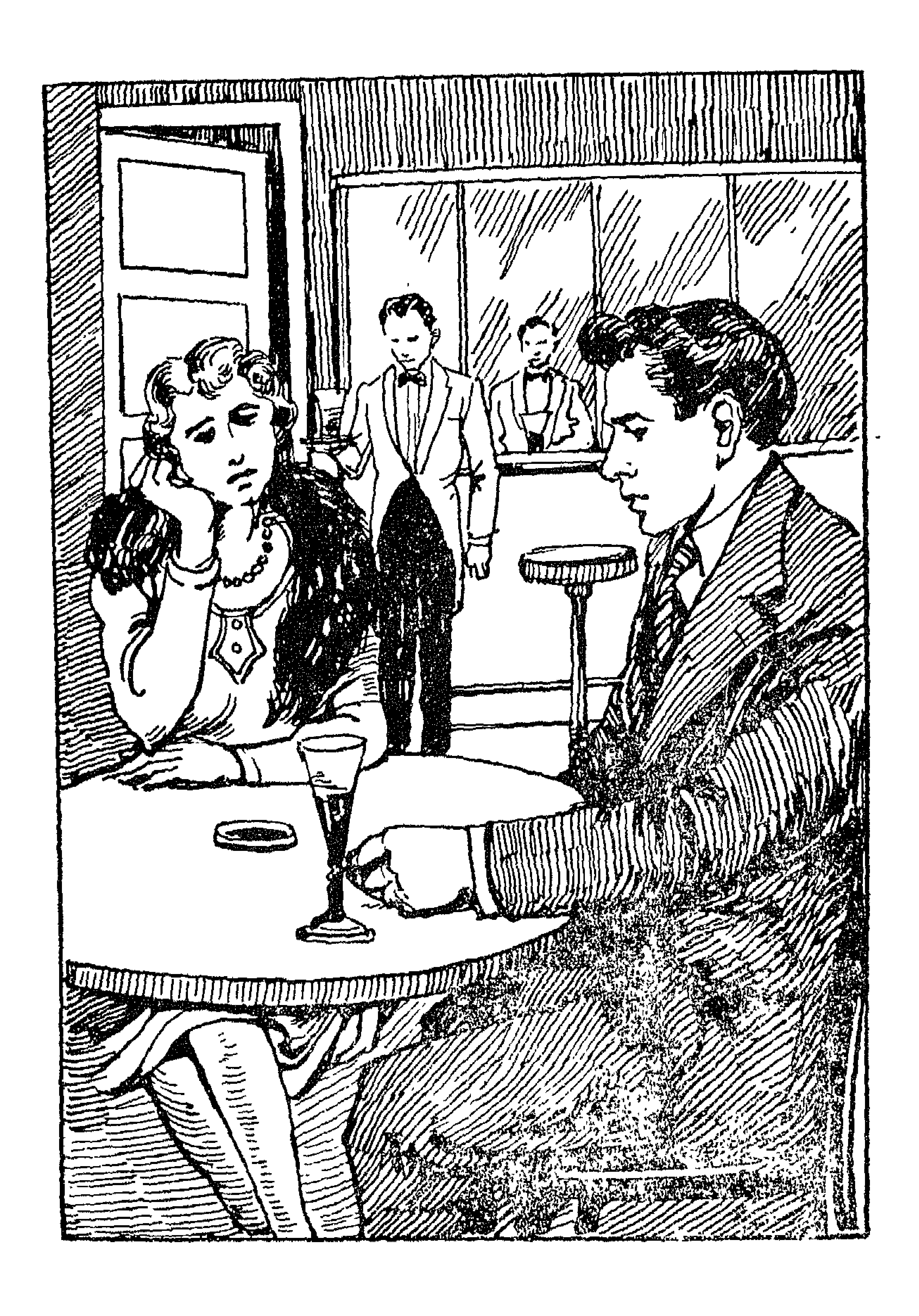
— « دعْ عنك التجاهل . . . إنى أحدِّثك عن المناجم التى ترومُ أن تستخرج منها أطنان الدِّهْنج . . . »

فطوى « جاك » الصحيفة التى كان يقرؤها وقال :

— « ما هذا الذى تحدِّثيننى عنه يا سيدتى ؟ » فقالت :

— « أحدِّثك عن الدِّهْنَج . . . عن المادة المركَّبة من الكبريت والنحاس . . . أتذكر تلك القطعة الخضراء الزرقاء التى جئت بها من مناجم " إسلندة "، تلك التى ظفر لك منها صديقك " بطرس " بخصص تأسيسها ؟ . . . لقد كان صديقك ماهراً حَذِقاً . . »

فلم يحر « جاك » جواباً ، ولا شاء أن يشاركها فى الحديث فاستأنفت تقول :



— « إنك رجل قوىّ . . . وإنك لترى فى النساء أنّهن لا يَصلُحن لجلائل الأعمال . . . ولكننى سأريك أنى لست على ما حسبتنى عليه من البلاهة وخفّة العقل . . . » فقال « جالك » :

— « أؤكد لك يا سيّدتى أنى لا أفهم كلمة مما تقولين . . . إن خيالك يخونك . . . وعلى كل حال فعُطلتى تكاد تنتهى وسأعودُ بعد أيام قليلة إلى عملى . . . »

فنهضت السيّدة « دوبريف » وقالت له وهى منصرفة :

— « جئتُ أعرضُ عليك عونى ومساعدتى فأبيتَ . ولسوف يدفعنى إباؤك إلى الانضمام للمعسكر الثانى . . . فأنتَ وشأنَك ! »

وبعد دقائق معدودات ، كانت السيدة « دوبريف » فى مكتب وكيل أعمالها فحيته وسألته قائلة :

— «أعرفتَ الشخص الذى يمتلك سندات مناجم الكبريت ؟ » فقال :

— « إن المكتتبَ الوحيد فى هذه الشركة قد تُوُفّى تاركاً تلك الأوراق لابنته . ولسوف نظفَرُ بتلك الأوراق قبل مضىّ أسبوع . . . ولما كانت لا تساوى الآن شيئاً . فسأعرض شراء السند الواحد منها بعشرة فرنكات وإن يكن سعره الأصلى خمسمائة فرنك » . فقالت :

— « أراهنك على أنك لن تحصلَ عليها ولو بخمسين فرنكاً . . . ما أغباكم أيها الرجال ! سأساعدك فى الحصول عليها . فكم يكونُ نصيبى من الربح ؟ » فقال :

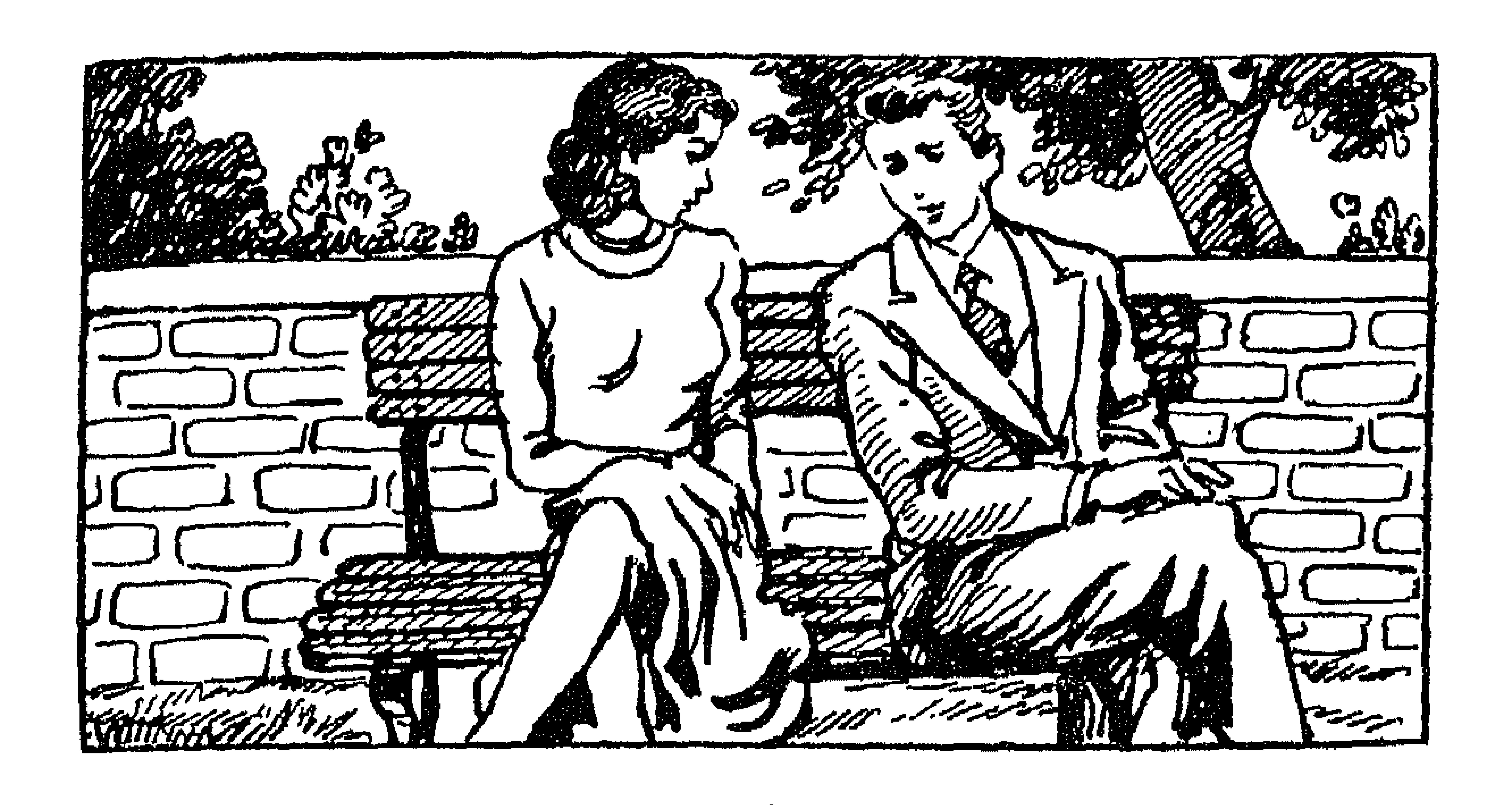
— « أيكفيك عشرة فى المئة ؟ » فقالت :

— « بل عشرين » . فقال :

— « اتفقنا » . فقالت :

— « اعلم أن أرضَ هذه المناجم غنيّةٌ بالدَّهْنج ، ولذلك يسعى السمسار " بطرس" فى شراء الأوراق لحساب " جاك " فعجِّل إذا شئت أن تفوز بها وإلا خسرتَ السّباق » .

وفى تلك الساعة كان « جاك » و « مارى ريشارد » يتناولان طعام الغداء فى المطعم الهولندى . وعينا كلٍّ منهما تفحصان للآخر عما يختلج فى الفؤاد من شعورِ الحبّ العميق . . .



٨

فى صباح اليوم التالى اجتمع « جاك » و « مارى » فى بَهْوِ المنزل ، فتصافحا وتبادلا تحيّة الصباح ، وأعلمته أنها ذاهبة لبعض شأنها ، ورجَتْ منه أن يقابلها فى نحو الساعة العاشرة فى إحدى الحدائق العامّة فلديها ما تقولُه له .

وفى الموعد المضروب ، كانا منتحييَيْن ناحيةً منعزلةً من الحديقة ، وجالسَيْن فى أحد المقاعد العامّة ينظران فى سكوتٍ إلى عُصْفور صغير يتنقل بين أقدامِهما ، باحثاً بمنقاره عن بعض الفُتات يتبلّغُ بها ، ثم تركهما وطار فى الفضاء . وقطعت « مارى » حبلَ الصَّمْت قائلة :

— « ما أغرب هذه الحياة وما أكثر مفاجآتها ! لقد حدثتنى منذ أسبوع حديثاً عابراً عن ثروة هبطتْ عليك . . . وها أنا ذى تهبطُ علىَّ أيضاً ثروةٌ لم تكن بالحسبان . . . إنها مبلغُ عشرة آلاف فرنك . . . انظر أولاً فى هذا » .

وأخرجتْ من حقيبة يدها كتاباً قدمته إليه ، فنظر فيه « جاك » فإذا هو كتابٌ من صديقه « بطرس » إلى الفتاة يعرض فيه عليها شراءَ السندات التى تمتلكها من مناجم الكبريت .

فغام الأفق فى عينى « جاك » ، ونهض من مكانه ، واستند إلى شجرة قريبة منهما وقال بعد لأْى وجهد فى ألمٍ ظاهر ونفسٍ معذبة :

— « إذن أنت هى ! »

فنظرتْ إليه مشدوهةً مذهولة ، وهى لا تدرى ماذا أصابه ، أما هو فقد أخذ العَرَقُ الباردُ يتصبب من جبينه . . . ذلك أن رسالةَ صديقه « بطرس » جاءت تحطم حلمه الجميل . فقالت الفتاة له :

— « ما بك يا سيد "جاك" ؟ ماذا أصابك ؟ قل . . . أفصح...»

حاول « جاك » الكلام فلم يستطع ، فتوسلت إليه أن يخبرها بما يشكو منه فقال بعد صراعٍ نفسىٍّ كبير :

— « لا شيء . . . لا تقلقى يا آنسة . . . إنى مضطرب قليلاً . . . لا تجزعى . . . فسوف أقولُ لك ماذا أصابنى . . . »

وكانت الفتاةُ قد نهضت من مقعدها واقتربت منه فقال لها :

— « اجلسي في مكانك يا آنسة . . . سأتمشّى قليلاً على مرأى منك . . . فإني في حاجة إلى الانفراد بنفسي . . . »

وذهب يتمشّى فلم يكد يخطو نحو عشرين خطوة . حتى لَمَعَ في ذهنه بريقُ خاطرٍ من الخواطر فعاد إلى الفتاة وسألها قائلاً :

— « قلت لي : عشرة آلاف فرنك . . . والرسالة التي أطلعتني عليها تعرض عليك ثلاثة آلاف فقط من الفرنكات » .

فقدّمت إليه رسالةً أخرى ، فاختطفها منها وابتعدَ عنها ، ولما أصبح على بُعْد خطوات من الفتاة فتح الرسالة وعلم منها أن أحد سماسرة القراطيس المالية يعرض عليها عشرة آلاف فرنك ثمناً لما تمتلك من سندات . . . فحزن « جاك » كل الحزن على حلمه الذي تلاشى . فاستدار ينظر إلى الفتاة فرآها واقفةً في مكانها تنظر إليه وتنتظره . فعاد إليها وقد عَزَمَ على أن يستمع لنداء الواجب . فابنةُ الرجل الذي سلبه أبوه ماله ، وكان سبباً في وفاته . لا يمكن أن تصبح زوجته ، فما عليه إذن إلا أن يقطع صلته بها ويصارحها بالحقيقة . وعزم كذلك على أن يطير إلى « إسلندة » ويعاودَ فحص المناجم ليعلمَ ويتأكد أحلمٌ جميل هي أم حقيقة راهنة . ويكفيه بعد ذلك أن يبرق إلى صديقه « بطرس » فتكون تلك البرقيّة الحدَّ الفاصل بينه وبين الفتاة . فلما صار على مقربة منها قال :

— « اعذريني يا آنسة على ما بدا مني . . . سألتِيني رأيي فيما هو

معروض عليك . وسأنهى إليك به مشترطاً أن تنفذيه بالحرف الواحد .
فهل تَعِدِينى بذلك ؟ » فقالت :

– « ولماذا ؟ » فقال :

– « سأشرحُ لك كلّ شىء . . . تعلمين أنى أعرف " إسلندة " ...
وهذه العروض تدل على أن تحت الصخور ثروة . . . فإياكِ أن تبيعى
سنداً من السندات التى فى حَوْزتِكِ . . . وسأخبر صديقى "بطرس"
وهو شريك السيد "أرمان" بالأمر . ولك أن تثقى به وتتّخذيه مستشارك...
إنى مضطر أن أسافر فى هذا المساء . فصاحبُ السفن الذى أعملُ
عنده يدعونى إليه . . . ولم . . . ولم . . . أجد الفرصة المواتية لأخبرك
بذلك . . . . و " بطرس " صديق حميم لى فيمكنك أن تعتمدى عليه
كلّ الاعتماد . . . . لا تبيعى سنداتِك بأى ثمن من الأثمان قبل شهر واحد
على الأقل . . . واتّبعى ما يشير به عليك صديقى " بطرس " . . . »
فقالت الفتاة :

– « لا أفهم ما تقول . . . فهذا السيّد الذى يعرضُ علىّ شراء
السندات بعشرة آلاف فرنك . . . » فقاطعها قائلاً :

– « لا تبيعى . . . لا تبيعى . . . اطبعى فى ذاكرتك كلّ ما أقوله
لك . . . » فقالت :

– « حسن . . . سأتّبع نصحك . . . لن أبيعَ السندات قبل مضى
شهر على الأقل . . . سأنفّذ ما يشير به علىّ صديقك " بطرس " . . .

أهذا كل ما تريد أن تقوله لى ؟ » فقال :

— « هذا كل ما أريد أن أقول ، فعدِينى أن تتّبعى نصيحتى . . . »
فقالت :

— « ولكن لماذا لا تريد أن تفسر لى هذه الأحاجى والألغاز ؟ »
فقال :

— « الأشياء مرهونةٌ بأوقاتِها . . . ستعلمين كل شىء . . . اقطعى لى الوعدَ باتّباع نصيحتى . . . » فقالت :

— « أعِدُك » . فقال :

— « إذن أستودعك الله . . . عذراً إذا أنا فارقتك على مثل هذه الحال المفاجئة . . . فلا بدّ من الرحيل ولن أستطيعَ البقاء دقيقةً واحدة بعد الآن . . . »

وكان وجهه قد امتقع وكُسِيَ بصُفرة الأموات فقالت له :

— « أألقاك فى المنزل هذا المساء ؟ » فقال :

— « كلا يا آنسة . . . لا هذا المساء ولا غداً ولا أى وقت آخر . . . كلمة واحدة تطلعك على السبب . . . فاعلمى يا آنسة أنى ابنُ الرجل المالىّ " ريمون أفريل " الذى كان السبب فى خراب أبيك . . . فالوَداع يا آنسة ! ! ! »

اضطربت « مارى ريشارد » عند سمَاعها هذا البيان ، فلم تردّ على

تحية الوداع فتركها « جاك » وسار محطّم القلب ممزّق الشعور ، فذهب إلى منزله وحزم حقائبَه ثم غادر المنزل إلى مكتب صديقه « بطرس » وقال له :

— « جئتُ يا عزيزى " بطرس " أطلبُ إليك أن تسحب عرضك الخاص بشراء سندات مناجم الكبريت . » فقال « بطرس » :

— « سبق السيفُ العذلَ يا صديقى . . . فالجوابُ لا بُدَّ أن يكون فى طريقه إلىّ بالبريد » . فقال « جاك » :

— « كلا . » فقال « بطرس » مدهوشاً :

— « كيف كلا . . . وما أدراكَ أنت ؟ » فقال « جاك » :

— « هناك سمسار يعرضُ عشرةَ آلاف فرنك » . فقال « بطرس » :

— « وكيف عرفتَ ذلك ؟ » فقال « جاك » :

— « لا تسأل عن ذلك . . . فإليك جلية أمرى على شرط أن تَعِدنى بكتمان السرّ » . فقال « بطرس » :

— « سرُّ المهنة قبل صداقةِ الأصدقاء » . فقال « جاك » :

— « أنا راحل إلى " إسلندة " لأفحص صخور تلك المناجم فحصاً دقيقاً ، وأعلم قيمة الدّهْنَج الذى يستخرج منها . . . . والآنسة " ريشارد " (أترى أنى أعرف اسمها) ستجىء إليك غداً أو بعد غد وتستشيرك فى أمر بيع تلك السندات ، فأوعزْ إليها أن لا تبيعها الآن بأىّ ثمن من الأثمان ، وسأبرق إليك بنتيجة أبحاثى ، وفى ضوء تلك البرقية يمكنك أن تنصحها

بما ترى ، وحاذرْ أن تلفظ اسمى » . فقال « بطرس » :

— « ولماذا ؟ » فقال « جاك » :

— « ستعرف ذلك فيما بعد . . . فالسمسار الذى ينافسنا هو وكيل أعمال السيدة " دوبريف " وقد كان السبب فى إخفاق ، فعلينا أن نحترس منه ونعمل على أن يُخْفق فى مهمته » . فقال « بطرس » :

— « فهمت . . . ولكن كيف علمت السيدة "دوبريف" بالأمر؟ »

فقال « جاك » :

— « استنتجتْ وصحَّ استنتاجُها . . . أرهف إلىّ سمعك : إذا أبرقتُ إليك قائلاً " تمسّك " فعليك أن تهدى حصص التأسيس التى لديك إلى الآنسة "مارى ريشارد"، وإن أبرقتُ إليك قائلاً "تخلص مما عندك" فعليك أن تحرق تلك الحصص وترمى بها طعمة للنار ... الوداع ياصديقى».

صافح « جاك » صديقه وغادر المكتب ، فأرسل رسالةً عاجلة إلى صاحبة المنزل يرجو منها أن تحتفظ لديها بحقائبه حتى تتلقى منه رسالة أخرى ، واستقلّ فى المساء القطار إلى الميناء الذى سيركب منه السفينة إلى « إسلندة » وعبثاً حاول أن يُغْفى ولو إغفاءةً قصيرة ، فما عرفت عيناه إلى النَّوْم سبيلاً ، وكانت نفسه نهْباً للأفكار تتوالى عليه موصولة الماضى بالحاضر والمستقبل ، وكثيراً ما فكر فى الآنسة « مارى ريشارد » وأسف على فقْدانها وعزّى نفسه عنها داعياً لها بالسعادة فى حياتها . وفى صباح اليوم التالى وصل القطار إلى ميناء « سان بريوك » فنزل منه « جاك »

ومضى توًّا إلى السيد « هارڤر » فاستقبله هذا قائلاً :

– « لماذا عدت قبل انتهاء عُطْلتك ؟ »

ولمّا حدّق فيه ولحظ ما هو عليه من اصفرار قال له :

– « ماذا حدَثَ لك يا عزيزى؟ ما هذه السحنة الصفراء المضطربة؟»

فافترّتْ شفتا « جاك » عن ابتسامة مصطنعة وقال :

– « نعم إنى متعب فقد قضيتُ طول الليل فى القطار يقظان سهران » .

فقال « هارڤر » مُغْضباً :

– « جئتَ لا شكَّ تطلب منى أمراً من الأمور فما هو؟ » فقال « جاك » :

– « جئتُ ألتمس منك أن تسلّفنى إحدى سفنك الصغيرة السريعة » .

فقال « هارڤر » :

– « ولماذا ؟ » فقال « جاك » :

– « يجبُ أن أذهب إلى " إسلندة " وأعودَ منها سريعاً . . . يهمنى أن أصل إليها قبل السفينة التى تغادر مياه "دنكرك" يوم الأربعاء المقبل».

فقال « هارڤر » :

– « اطلب إذا شئتَ جميع سفن أسطولى فأنت تعلم كم أحبُّك وأعزُّك » . فقال « جاك » :

– « شكراً لك يا سيدى ، على أنه تكفينى سفينة واحدة . . . فالمسألة

التى أسعى من أجلها جليلة الشأن . . . وسوف أدفع لك ثمن الفحم وأجورَ البحارة » . فقال « هارڤر » :

ــ « أمَّا الحسابُ فسوف نسويه بيننا . . . وأمَّا السفينة فماذا أنت صانع بها ؟ . . . صارِحْنى فى القول أو اطرق باب سواى » . فقال « جاك » :

ــ « يعِزُّ علىَّ يا سيد "هارڤر" أنى لا أستطيع أن أبوحَ لك بالسر» .

شقَّ على « جاك » أن يلقى تلك المعارضة من جانب « هارڤر » فلا بدَّ له من إقناعه وحَمْله على الرضى ، فلو اتَّخذ فى السفر إلى «إسلندة» الطريق العادى لسبقه إليها أعوان السيدة « دوبريڤ » فعاود الكرة وقال :

ــ « يتعذَّر علىَّ يا سيِّدى أن أفضى إليك بسبب الرحلة ، فلست أملك سرَّها وحدى ، فناشدتك الله يا سيدى إلا ساعدتنى فيما أطلب ! » فقال « هارڤر » :

ــ « لن أجيبَك إلى طلبك ما لم تَبُحْ لى بسرِّ المسألة » .

وعرف « جاك » أن « هارڤر » عنيد جبار ، وأنه لن يستطيع التغلُّب على عناده فقال له :

ــ « المسألة ياسيِّدى . . . هى أن . . . ولكن عِدْنى بكتمان السرّ » . فقال « هارڤر » :

ــ «أعِدُك وعداً قاطعاً بكتمان السرّ ، فأنت تعلم أنى رجلٌ أفى بوعدى

وعهودى ، أما السفينة فلا أعـدُ بها حتى أعرفَ السبب وتزروفنى » .

فقال « جاك » :

ـ « أتذكر أنك بعتَ بعض الأرضين فى " إسلندة " إلى والدى ؟ »

فقال « هارڤر » :

ـ « نعم أذكر ذلك » . فقال « جاك » :

ـ « أوَتَذكرُ أن الغلام "جيّوم" قد مات فى أثناء رحلة من رحلاتنا إلى تلك الأصقاع ، وأنى نزلتُ إلى البرّ لأشرف على دفنه ؟ » فقال « هارڤر » :

ـ « نعم أذكر ذلك » . فقال « جاك » مستأنفاً :

ـ « فلما انتهيتُ من مراسيم الدفن ، عرفتُ أن الهضابَ القائمة وراءَ القرية هى التى كنتَ أنت قد بعتَها فجُلْستُ فيها وأخذتُ منها قطعةً صغيرةً من الصخر ظننتـُها من السوائل المتجمدة التى تقذفها البراكين وهاهى ذى» .

وأخرج « جاك » قطعة الصخر وقدمها إلى « هارڤر » ففحصها هذا وصاح مدهوشاً :

ـ « إنها وحقِّ الآلهة من الدَّهْنَج ! » فقال « جاك » :

ـ « ولقد اجتهدت وأنا فى " باريس " أن أشترى القراطيس الخاصّةَ بشركة مناجم الكبريت ، ولكننى لم أحْسِن صُنعاً ولا اتخذتُ سبيلَ الرزانة إلى ذلك ، فارتفعت الأسعار ولم يكن لدىَّ المال الكافى لأعقد

صفقةَ الشراء ، وأظفر بجميع الأوراق ، فعزمتُ على أن أعاود البحث فى طبيعة تلك الأرض قبل أن أعمِد إلى أىّ أمر من الأمور . . . يهمُّنى أن أصل إليها قبل أولئك الذين سوف يقصدونها بالطريق العادى ، فهل فهمتَ قصدى ؟ » فقال « هارفر » :

– « فهمت . . . ولكن أواثق أنت بالعثور على الدَّهْنَج ؟ » فقال « جاك » :

– « كلَّ الثقة . فحسبك أن تعرضَ هذه القطعة على أحد رجال الكيمياء . . . » فقال « هارفر » :

– « ومن يمتلك الآن أسهم تلك الشركة ؟ » فقال « جاك » :

– « ابنة الرّبان الذى خدعه والدى » . فقال « هارفر » :

– « خَدَعَ أبوك الربّان وتريد أنتَ الآن أن تخدع الابنة ! إن هذا النَّغْلَ من ذاك الأديم . . . لا . لن تظفر بسفينتى » .

تضايق « جاك » من إصرار « هارفر » على الرفض ومن تعنّته وفضوله فقال له :

– « يجب علىّ إذن أن أفضى إليك بكل شىء . . . بكل ما أجتهد أن أنساه . . . أما أن أخدَع هذه الفتاة فكلاّ وألف مرة كلاّ ، فهى أعزّ مخلوقٍ على نفسى فى هذه الحياة ! لقد أحببتُها حبّاً جمّاً قبل أن أعرف من هى » .

وقصّ « جاك » على « هارڤر » قصّته مع الفتاة ، وأوجز ما أمكنه الإيجاز ، وأطلعه على الاتفاق الذى عقده مع صديقه « بطرس » وكان « هارڤر » يستمع إليه ويؤمِّنُ بحركاتٍ من رأسه على كلّ ما فعل فقال له :

— « حسن يا بنى . . . سأدفعُ إليك بالسفينة " أليصابات الشابة " فهى أسرع سفينة على وجه الماء » .

فشكره « جاك » وتسلّم منه رسالةً إلى ربان السفينة ، فطار بها إليه ، فلما وصل إلى السفينة كان الربان غائباً ، واتفق أن كان « يوسف منزى » بين بحارة السفينة ، فحياه « جاك » فلم يردّ على تحيته وطلب « جاك » منه أن يوصل الرسالة إلى الربان حيث يكون ، فقال له « يوسف منزى » :

— « أنا لستُ خادمَك يا هذا . . . »

فما كاد « يوسف منزى » يتُمِّمُ عبارته حتى كانت قبضة « جاك » تلطمه لطمةً عنيفة فوق حاجبه ، فترنّح من هَوْل الضَّرْبة فقال له «جاك» :

— « لم تَرَنى منذ زمن طويل أيُّها الحيوان ! أنسيتَ سيّدك . . . تقولُ إنك لست خادمى فنفّذ ما آمرك به وإلا فالويل لك » .

سارع « يوسف منزى » يحملُ الرسالة إلى صاحبها وعاد بعد نصف ساعة يقول لهُ إن الربان مشغول ، وإنه سيبقى عدة أيام فى المدينة ، فلن يبحر بالسفينة قبل ذلك . فقال « جاك » على مسمعٍ من البحارة :

— « لقد اتفقتُ مع " هارڤر " على كل شيء ، فإذا كان الرّبان مشغولاً فسأكون أنا الرّبان » .

ووزّع « جاك » أوامره على الرجال ، وذهب إلى مخدع الربان فغيّر ملابسه ، وبعد نحو ساعة جاءه نفرٌ من الحمّالين يحملون عدة صناديق ومن بينها صندوق كبير كان قد جلبه معه بالقِطار ، فأوصى رجاله أن ينقلوه إلى حيثُ أراد ، وحذّرهم من العبث به فهو مملوء بالديناميت .

وعند الأصيل ، كانت « أليصابات الشابة » تسيرُ متهادية على صفحات الماء ، فما كادت تجرى نحو مئة متر حتّى تذكر البحارة أن السفينة خاليةٌ من الزّاد ، فحاول أحد البحارة أن يقفز إلى الماء ويسبح إلى الميناء ، فبصر به « جاك » وخفّ إليه فأمسك به ورماه إلى سطح السفينة ، كما يرمى الغلام كُرةً صغيرة ، وتصايح البحّارة طالبين العودة إلى الميناء فزجرهم « جاك » وقال :

— « إن خُلُوَّ السفينة من الزاد سيجعلكم تَنْشطون للعمل والإسراع فيه . . . إننا ذاهبون إلى " إسلندة " وهناك ستأكلون وتشربون . . . ألا يستطيعُ الرجال أن يمكثوا عدّة أيامٍ بلا طعام ؟ ! »

فزَمْجَرَ البحارة وأقبلوا عليه متوعدين ، فطار صواب «جاك» وانقضّ عليهم جميعاً يكيلُ لهم الضربات القوية ويضرب أحياناً واحداً بواحد . أما « يوسف منزى » فلم يشترك فى التمرد فما كان قد نَسِيَ طعمْ ضربات



« جاك » وكان يقولُ لزملائه : ويحكم إنكم تتحدّون « المطرقة »
إن « جاك » مِطْرَقةٌ من الحديد . واضطرَّ البحارة إلى الإذعان
والخضوع ، فلما هدأت ثائرتهم قال لهم « جاك » :

— « ويحكم أيُّها الأوباش ! إن السفينة مملوءة بصناديق الزّاد ،
ولكننى أردتُ أن أمتحن رجولتكم » .

فقهقه البحّارة ضاحكين مِلْءَ أشداقهم وصاحوا : عاش « جاك
المطرقة » ! عاش « جاك المطرقة » .





٩٠

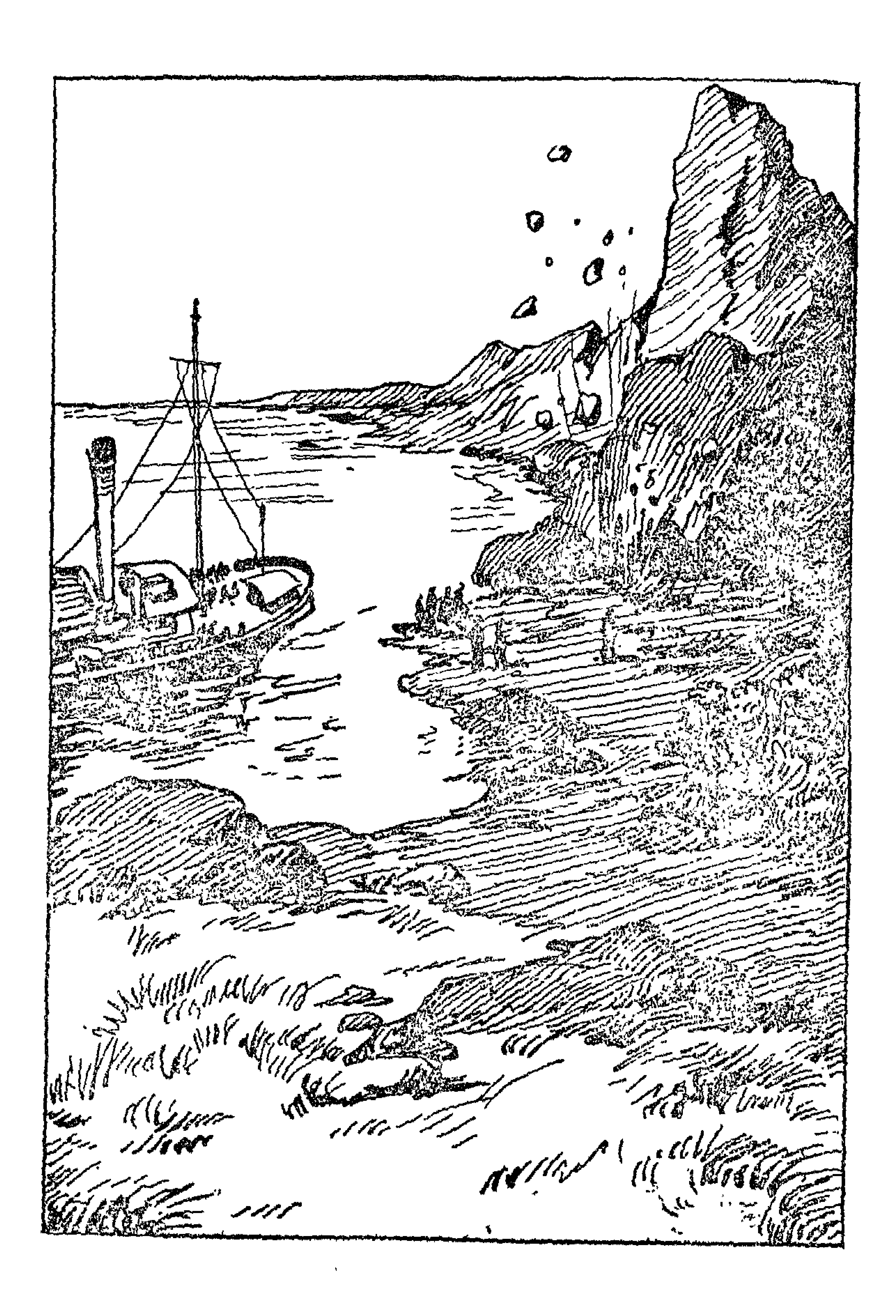
جدّت السفينة فى سيرها ، واستمرّت عدّة أيام تجرى بأقصى سُرْعتها ، مغالِبةً الأنواء مصارعةً عَتِيَّ الأمواج ، حتّى وصلت إلى الشاطئ الذى يقصده « جاك » فألقت مِرْساتها على بُعْدِ ميلٍ منه . ودب النشاط فى نفوس البحارة فعملوا جاهدين مُسْرعين ، فأنزلوا إلى البحر قاربين نقلوا إلى الأوّل منهما صندوقَ الديناميت ، فعَهِدَ « جاك » فى حراسته والوصول به إلى الشاطئ إلى اثنين من البحارة المهَرة الأقوياء ، وركب هو القارب الثانى مع أربعةٍ من رجاله ، وسارت القافلة إلى الساحل ، فوصلت إليه بعد عناء شديد .

وتضافر الرّجال كلهم على نَقْل الصندوق إلى البقعة المنشودة ، فلما بلغوها رمى « جاك » نظرةً فاحصةً إلى الصخور القائمة هناك ، وفتح علبة الأدوات التى أتى بها ، وأخذ يحكُّ بعض الصخور ويزيل عنها قشرتها لعله يصلُ بعد الطبقة الأولى والثانية إلى طبيعة الصخر الأصيلة ، فيرى أهى من الدّهنج أم من تافه الصخر ، ولكنه لم يفز بطائل من ذلك الاختبار فأيقن أن الدهنج لا بد أن يكون فى جوف الصخور ، وأن الطبقات المتراكمة عليه من السوائل البركانية أو من عناصر الطبيعة الأخرى لا شكَّ قد حجبت المعدنَ الأصيل ، فوزع الديناميت على عدّة أماكن مختلفة من عالى الصخور والهضاب ، ووصل كلَّ كميّة منه بفتيلة طويلة ، وأخذ يُشعل رأس كلّ فتيلة ويبتعد عنها هو ورجاله إلى أقصى ما يمكن ، فيدوى على الأثر صوتُ انفجار هائل يمزّق أجواز الفضاء ، ويرمى بفُتات الصخور متناثرةً فى كل جهة .

وكان « جاك » يسارع بعد كلّ انفجار إلى المكان المتفتّت ، يبحث عن الدّهنج فلا يعثر له على أثر ، فيأمر رجاله بأن يدخلوا إلى نهاية التجويف الذى استحدثه الانفجار ، وأن يأتوه بقطع من الصخر يقدّونها من جوف المكان ، فيفعلوا فينكبّ على الفحص والبحث والاستقصاء ، فلا يجد شيئاً مما صوّره له الوهم وهكذا دواليك . . .

فجمع رجاله يائساً قانطاً وقال لهم :

— « لقد أخفقتُ فيما جئتُ من أجله يا رجال . . . لقد توهّمتُ أنى



مُلاقٍ في هذه البُقْعة منجماً من الدَّهْنج، وهو ضربٌ من الألماس الرخيص، أو ملاقٍ فيها منجماً من حجارة الكبريت فخاب فألى . . . أمّا هذه القطع الصغيرة من الدَّهْنَج التي نراها منثورة هنا وهناك، فلا تُغْنِي فتيلاً، فوجودُها هنا من باب الاتفاق ثم إن استخراجها يكلف أضعاف ثمنها . . . فإلى السفينة ! »

وعادَ الرجالُ إلى القاربَيْن، ولم يلتقوا في أثناء طريقهم إليهما بأحدٍ من سكان القرية البعيدة، فإن دويّ الديناميت جعلهم يَقْبَعُون في دُورهم مخافة أن تصيبهم رشاشةٌ منه .

وركِب البحارة القاربَيْن، وضربوا الماء بالمجاديف حتى وصلوا إلى السفينة، فأقلع بها « جاك » على الفور تحزُّ في صدره الآلام، ويقوم في نفسه كرهٌ بغيضٌ لهذه الحياة الجوفاء التي سيحياها . لقد كان قريباً من السعادة وكاد يمسك بتلابيبها فإذا هي تفِرُّ منه إلى غير رَجْعة .

وتمهل « جاك » في العودة فليس هناك هدفٌ يسعى إليه، وشرع يعرِّج بالسفينة على كل شاطئٍ وميناءٍ، فينزل إلى المدينة ويقضى بها ليلةً صاخبة، فإذا عرَضَ له خيالُ « ماري ريشارد » قامت ثائرته وقعدت، ولَعَنَ الدهرَ الغدارَ على أن فرّق بينه وبين الحبيب .

وقبل أن يبلغ ميناء « سان بريوك » بعدّة أيّام، كانت السيدة « دوبريف » مجتمعة بوكيل أعمالها فسألته :

— « هل من جديدٍ في مسألة السندات ؟ » فقال :

— « لا جديد . . . إننا فى الانتظار ، فلو استعجلنا الأمر لطلبوا منا ضعف الثمن » . فقالت :

— « يجب علينا أن نعرف أولاً ما قيمةُ تلك المناجم وما نفقاتُ استغلالها . . . هل عاد الرسولُ الذى أوفدته إلى هناك ؟ » فقال :

— «إنه لا يزال فى الميناء ينتظر سفينةً قاصدةً إلى تلك الجهة النائية» . فقالت :

— « إن تأخره بغيضٌ خطر » . فقال :

— « وأىُّ خطرٍ فيه ؟ » فقالت :

— « إذا علم خصومُنا بالنتيجة قبلنا سبقونا . . . » فقال :

— « قد يكونُ ذلك ولكن ما العمل ؟ » فقالت مُحْنَقَة :

— « سأنهى به إليك عندما أنجحُ فيه » .

وفى اليوم الذى وصل فيه « جاك » إلى « سان بريوك » كانت السيدة « دوبريفْ » فى المدينة ، فتقصّت أخبار « جاك » فعلمتْ أنه قد رجع من رحلته منذ لحظات ، وأنه فى أحد المطاعم يتناولُ طعامه ، فقصدته واقتربتْ منه وقالت :

— « السيّد " جاك " ؟ »

اضطرب « جاك » لسماعه ذلك الصوت ، فرفع رأسَه فلقى السيدة « دوبريف » فنهض يحيِّيها وهو يقول فى نفسه : لم تأت هذه السيدة إلى

هذا المكان حباً لسواد عينيَّ، فلا بد أن يكون الدهْنَج هو الذى دفعها إليه فقال لها :

– « أكنت تبحثين عنّى يا سيدتى ؟ لا أكذب القول أنّى ما كنت أتوقّع زيارتك بعد الذى جرى بيننا فى لقائنا الأخير . انظرى إلى ملابسى تُوقنى أنّى كنتُ صادقاً عندما أخبرتك بأنى عائد إلى العمل فى السفن » .

فابتسمت السيدة وقالت :

– « إن هذه المدينة صغيرةٌ ، والأنباء فيها لا تخفى ، فليس العملُ على ظهر السفن هو الذى حداك إلى الرحيل عنها والعودة إليها » . فقال متهكماً :

– « إن حركاتى وسَكَناتى تهمك إذن يا سيدتى ! » فقالت :

– « عرضتُ عليك عونى فرفضت ، ولا يزال فى الوقت سعة حتى تقبل » . فقال :

– « ألستِ أنتِ يا سيدتى التى أوعزتِ إلى وكيل أعمالك بأن يهتمّ بمناجم " إسلندة " فنشط إلى عرقلة أعمالى ؟ أوَ لستِ أنت الآن فى هذا المكان تساعدينه فيما يبتغى ، وتحاولين أن تقفى منى على ما عندى من أخبارٍ عنها ؟ » فقالت :

– « ظُنّ ما شئتَ، وقدّرْ ما تريد، فإن رغبت فى أن أنضم إليك فحدّثنى عن حقيقة هذه المناجم فإنك عائدٌ منها » .

ورأى « جاك » أن من المروءة أن يكونَ صريحاً فى أقواله فأجابها قائلاً :

— « لقد خُدِعْتُ يا سيّدتى . . . ليس فى هذه المناجم شىء من الدَّهْنَج يستحقّ الذكر ، فاستخراج النَّثير منه يكلف فوق ثمنه » .

فضحكت السيدة « دوبريفْ » وقالت :

— « تقولُ لى هذا حتّى أحمل وكيل أعمالى على أن يسحب العرض الذى عرضه على وارثة المكتتب الوحيد ، وحتّى يخلو لك الجوّ فتظفر بالسندات والأسهم بثمنٍ بَخْسٍ ؟ » .

عزّ على « جاك » أن تعتقد السيدة « دوبريف » أنه يكذب عليها ، فأراد أن يؤكد لها صدق ما قال ، ولكن السيدة كانت قد نهضت منصرفة ، وقصدت إلى مكتب البريد والبرق وأرسلت إلى وكيل أعمالها البرقية الآتية :

« مناجم غنيّة . اجتهدْ فى شراء جميع السّندات والأسهم . دوبريف» .





١٠

بقيتْ « مارى ريشارد » ذاهلةً ساهمةً بضع دقائق بعد انصراف « جاك » ، ثم رجعت إلى نفسها واستعرضت ما مرّ عليها من حوادث ، وحاولت أن تربطَ بعضها إلى بعض ، وأن تجدَ لكلٍّ منها تفسيراً .

لقد عُرِضَ عليها مبلغٌ كبيرٌ من المال ثمناً لأوراق لا قيمة لها ، فسُرَّتْ بالعرض وأخبرتْ به « جاك » فتجهَّم وجهه وضاقت نفسه . ترى لماذا ؟ ألعِلْمِه أنها ابنة الرجل الذى تسبّب أبوه فى خرابه ؟ أكان يجهل ذلك حتى اطَّلع عليه من الرسالتين اللتين أقرأته إيَّاهما ؟ لا . ليس هذا السبب الحقيقى . فليس أبوها الذى كان سبب نكبة أبيه ، فلماذا إذن أبْغَضها

فجأةً وكَرِهَها ؟ ألأنه اضطرَّ إلى هِجْرانها وفقد سعادته ؟ كلا . فهذا سببٌ لا يعقل أبداً . ألأنها آثرتْ عرضاً أسخى من عرض صديقه « بطرس » ؟ وهذا أيضاً سبب مضحكٌ سخيف .

وعلى مثل هذه الأسئلة والأجوبة قضت الفتاة بعض الوقت جاهدة فى الوصول بأفكارها إلى سبب قوىّ سليم يفسر لها رحيل « جاك » فما أمدَّها تفكيرها بشىء ترتاح إليه .

ثم دار بخلدها واجبها البنوىّ نحو أبيها ، فما وجدته سبباً يحملُها على بغض « جاك » الرجل القوىّ الذكىّ الوافر المروءة ، الكريم الخلق . . .

وذهبت فى اليوم التالى إلى مكتب السيد « بطرس » نزولاً عند نصيحة « جاك » ووعدها إياه باتباعها ، فاستقبلها على الفور فقالت له :

— « فى الوقت الذى تلقَّيت فيه عرضك ياسيِّدى لشراء سندات مناجم الكبريت ، تلقَّيْتُ عرضاً آخر أعلى ثمناً ، فقبل أن أقرر شيئاً فى الموضوع ، أتيتك مستشيرةً ، ملَبِّيَةً فى ذلك نصيحة صديق لكِ هو السيِّد "جاك أفريل" جارى فى المنزل الذى أسكنه » . فقال « بطرس » :

— « أنصحك يا آنسة أن لا تبيعى هذه السندات فى الحال . . . علمتُ أنه عثِرَ فى تلك المناجم على موادّ قد تكونُ ثمينة ، ولقد تسرَّب الخبر إلى رجال المال فارتفعت أسعارُ سنداتك وأسهمك ، فمن مصلحتك التريث والانتظار » . فقالت :

— « وكيف عَلِمَ الناس بالعثور على تلك المواد التى قد تكون ثمينة ؟»
فقال « بطرس » :
— « لست أدرى يا آنسة » . فقالت :
— « لا بأس » . ثم سكتت قليلاً واستأنفت حديثها قائلة :
— « أليس السيد " جاك أڤريل " هو الذى طلب إليك أن تعرض علىَّ شراء السندات بثلاثة آلاف من الفرنكات ؟ »
فسكت « بطرس » ولم يجب فاستأنفت الفتاة قائلة :
— « لقد تقابلنا يوم السبت وفهمتُ ممّا رواه لى أن العرض هو صاحبه».
فقال « بطرس » :
— « ما كنتُ لأكتم أمراً أخبرك هو به ! »
ولم يدر فى خاطر « بطرس » أنه وقع فى الشَّرك الذى نصبته له الفتاة وأنه أفضى إليها بما كانت تريد أن تعرف، فتابعت تحقيقها وقالت سائلة :
— « لقد عاد إلى " سان بريوك " أليس كذلك يا سيّدى ؟ »
فلم يجد « بطرس » أىّ ضررٍ فى الردّ بالإيجاب .
وانصرفت الفتاة مسرورةً من نجاح حيلتها . فقد استقرَّ فى ذهنها الآن لماذا هجرها « جاك » فقالت فى نفسها : لا بد أنه كان قد كشف سرّ المناجم فجاء إلى « باريس » باحثاً عن أوراق تلك المناجم ليستأثر

بها كلها بثمن زهيد . . . يا لَهُ من رجلٍ كريم النفس والخلق ! فلمّا عرَفَ أن هناك قوماً يزايدونه فى الثمن ، هرب إلى «سان بريوك» ليُخمْد الموضوع ، أو يستعدّ له استعداداً جديداً ، فقد يكون ذهب إليها باحثاً عن مالٍ يستقرضه ويعود به شارياً . . .

وثبت هذا الرأى الأخير فى ذهن الفتاة عندما تلقت بعد أيامٍ عرضاً جاءها من مدينة « سان بريوك » يطلب صاحبه إليها أن تحدد ثمن ما تمتلك من سندات وكان مصدر العرض هو السيد « هارڤر » فقد قال فى نفسه إن الحديث المتّصل ، والعُروض المتواترة ، سوف ترفع لا شكّ الثمن ، وفى ذلك فائدة محقّقة للفتاة .

فلمّا علمت « مارى ريشارد » أن العرض واردٌ لها من مدينة « سان بريوك » أبتْ أن تحدّد للسندات ثمناً .

ومضت الأيام على تلك الحال إلى اليوم الذى تلقّى فيه وكيل أعمال السيّدة « دوبريڤ » برقيتها من « سان بريوك » ، فكتب فى الحال إلى الآنسة « مارى ريشارد » يطلب منها تحديد الثمن ، فذهبت بالرسالة إلى السيد « بطرس » ولما لم يكن قد تسلم برقية من « جاك » فقد أراد أن يماطل ويتعنت ، فأوعز إلى الفتاة أن تطلب ضعف الثمن الأصلى لكل سند ، فقبلت وجاءه الردّ برجوع البريد مصحوباً بصكّ قيمته تسعون ألف فرنك ، فما وسع « بطرس » إلا القبول ، فلما استدعى الفتاة

إليه فى اليوم التالى ، قدَّمَ إليها الصك وهو يقول :

— « لقد ارتكبتُ حماقةً سيلومنى عليها " جاك " كل اللوم » :

فقالت :

— « وما شأنُ السيد " جاك " والمسألة ؟ » فقال :

— « هو الذى أوصانى فى أن أنصحك بأن لا تبيعى السندات . . . فقد كان من الممكن أن يزداد ثمنها ارتفاعاً » . فقالت :

— « أرادَ ولا شكَّ أن يكسب الوقت ويجمع الأموال ليوافيى بعرض جديد عن يد رجلٍ رابع ! » فقال :

— « ماذا تقولين يا آنسة ؟ كيف تتوهمين أن " جاك " خليقٌ بمثل هذا العمل؟ إنك تجهلينه كل الجهل . . . وهَبيه شاء ذلك فمن أين يجيء بالمال ؟ » فقالت :

— « ظننته غنيّاً » . فقال :

— « لا يملك فى الحياة غيرَ راتبه . . . »

وعَمَدَ « بطرس » إلى كتابة وثيقة البيع ، فوقّعت عليها الفتاة وسلّمها الصك على وعْدٍ منها أن تبعث إليها بالسندات :

وكَثُرَ المالُ فى يد « ماري ريشارد » بعد الضيق الذى لازمها منذ وفاة والدها ، فأهابتْ بها دواعى الأنوثة فخفّت إلى حوانيت الملابس والأزياء ، فابتاعتْ منها ما شاءتْ أن تبتاع ، وفى تلك الغَمْرة من فرح

الأنوثة وحمَّى الشَّراء ، جاءتها رسالةٌ من « بطرس » يرجو منها أن تعرج عليه فى مكتبه ، فذهبتْ إليه متبرجة متأنقة حسنة الزىّ والهندام ، وبادرته قائلة وهى تبتسم :

— « أنبأ سار أيضاً يا سيد « بطرس » ؟ » فقال :

— « كلاَّ وا أسفاه ! . . . لقد تلقيتُ أنباء من مناجم "إسلندة" . إنها خاليةٌ من الدَّهْنَج » . فقالت :

— « وهل أستطيعُ أن أعرفَ اسم الذى وافاكَ بهذه الأنباء ؟ » فقال :

— « ما إخالُنى أملكُ حقَّ البوحِ باسمه » . فقالت :

— « أمَّا أنا فأملك حقَّ حَزْرِه . . . إنه السيد "جاك أڤريل" أليس كذلك ؟ لا تُنكر ياسيدى ؟ أنا واثقة بأنه هو. . . فاعلم أنى لا أصدِّقُ حرفاً مما تقول . . . تلك طريقته . . . لقد فاتَتْه السندات فهو يسعى الآن للحصُول على الأسهم ، فعَمَدَ إلى إشاعة هذه الأنباء الكاذبة ، ولكننى لن أبيعَ الأسهم بأىِّ ثمن كان . . »

فاستغرق « بطرس » فى الضحك وقال :

— « يا له من رأيٍ ثاقب . . . نعم إن التَّقرير من " جاك " وما هو بتقريرٍ ، إنه برقية وصلتْ إلىَّ متأخرة يومين عن اليوم الذى تلقيت فيه الصكَّ من مشترى سنداتك يا آنسة . . . لقد طلب إلىَّ فى تلك البرقيَّة أن أسعى فى بيع أوراقِك ، فلولا الضجة التى أثارها لما ظفرتِ بتسعين

ألفاً من الفرنكات . . . وأمس تلقَّيت منه رسالة يخبرنى فيها بأن لا وجود للدَّهْنَج فى تلك المناجم » . فقالت :

— « ومن يدرينى أنه يقولُ الصِّدْق ؟ » فاكفهرَّ وجه « بطرس» وقال :

— « لا أحدَ . لقد أوصانى "جاك" أن أبلِّغك نتيجة بحثه ولقد فعلت . . . فهمتى قد انتهت . . . »

وشعرت الفتاة أن « بطرس » يطلب منها الانصراف فلم تبالِ أمْرهُ وقالت بلهجةٍ حُلوةٍ متوسِّلة :

— « أترغبُ يا سيد" بطرس" فى أن تُطْلِعَنى على رسالته ؟ أتوسَّلُ إليك يا سيدى أن تطلعنى عليها ؟ »

تردَّد « بطرس » لحظة ثم قال فى نفسه : وما المانع ؟ فقدَّم للفتاة البرقية أولاً ثم الرسالة . فقرأت فى البرقية : « تخلَّص ممَّا عندك . تحياتى . جاك » ثم قرأت الرسالة فإذا « جاك » يصف فيها رحلته ويختمها بقوله :

« ها أنا ذا أعودُ صفر اليدين . . . إن الشىء القليل من الدَّهْنَج قد تفتت مع نثار الحجارة . . . لقد حلمتُ حلماً جميلاً وها هو ذا قد اضمحلَّ . . . قابل الآنسة ر . وانْصَحْها ببيعِ سَنَدَاتها وأسهمها ، أما حصصُ التأسيس التى أملكها فارْمِ بها إلى النار » . فقالت الفتاة :

— « وأيَّة حصص تأسيس هذه ؟ » فقال « بطرس » :

ــ « لقد كنت ظفرت بها تنفيذاً لأمره » .

ثم قام إلى خزانة فى المكتب ، وأخرج منها حصص التأسيس ، وقدمها إلى الفتاة . فقالت له :

ــ « ماذا كنتَ تفعل بهذه الأوراق لو كان عُثر على الدَّهْنَج؟ فقال :

ــ « طلب " جاك " منى أن أهديها إليك » .

فجفَلت الفتاة وعادتْ إلى قراءة بقية الرسالة فإذا فيها ما يأتى :

« فإذا قابلتَها يا صديقى القديم، فاكتبْ إلىّ ، وأخبرنى عن حالها وهل يتردَّد ذكرى على لسانها . إنى أفكِّرُ فى أول لقاء لنا . لقد صحبتُها إلى مكتبك لتسأل شريكك عن عنوان السيد " إدمون " ثم تلاقينا غيرة مرَّة . استشارتنى فى بيع أسهمها وسنداتها وما كنتُ أعلم حتى اللحظة التى استشارتنى فيها أنها المالكة لتلك الأوراق . أتذكر كيف أردتَ أن تذكرَ لى يوماً اسمها فقلتُ لك : لا أريد أن أرجعَ بذاكرتى إلى وفاة أبيها . . . أشعرُ الآن أنها المرأة الوحيدة فى حياتى وستظلُّ على البعد المرأة الوحيدة فى حياتى البائسة . اكتب إلىّ .

صديقك إلى الأبد ــ جاك »

« حاشية : أرجو أن لا تقولَ لها أىّ شأنٍ كان لى فى هذه المسألة » .

انتهت الفتاة من القراءة فأجهشت بالبكاء، ثم استعادت على الفَوْر رباطة جأشها ونهضت مودعة وقالت :

— « إنى شاكرةٌ لك جزيلَ الشكر يا سيّد " بطرس " » .

فابتسم « بطرس » ومدّ لها يده مصافحاً فصافحته ، وحاولت هى أيضاً أن تبتسم ولكنّ شفتيها لم تنفرجا إلا عن بسمةٍ حزينة ، فودّعته وانصرفت .

عادت إلى منزلها واستلْقت إلى سريرها فكان خيال « جاك » لا يفارقها. أدركتْ أنها تحبُّه بل إنها أحبَّتْه منذ اللحظة الأولى ؛ ؛ ؛

حان ميعادُ الغداء فلم تفارق الفتاةُ غرفتها، فهُرِعَتْ إليها صاحبةُ المنزل لتستوضح أمرها فرأتها دامعةَ العينين فقالت لها :

— « مِمّ تشكين يا عزيزتى ؟ ولماذا تبكين ؟ »

فما أجابتها الفتاةُ بغيرِ العويل والنحيب ، فتركتها صاحبةُ المنزل تنفّسُ عن صدرها بالبكاء حتى إذا هدأت ثائرتُها تبسَّمت وقالت :

— « سأسافر فى هذا المساء » . فقالت صاحبة المنزل :

— « إلى أين ؟ » فقالت :

— « إلى " سان بريوك " » . فقالت صاحبة المنزل :

— « إذا قابلْتِ السيد " جاك " فبلّغيه تحيّاتى » .

فلم تجب « مارى » بل ذهبت مع صاحبة المنزل تتناول طعام الغداء . وفى المساء استقلّت القطار إلى « سان بريوك » فوصلت إليها فى صباح اليوم

التالى ومضت توًا إلى السيد « هارڤر » وقالت له :

— « أودُّ يا سيدى أن أقابل فى الحال السيد "جاك" » . فقال « هارڤر » :

— « إنه ليس فى "سان بريوك" يا آنسة » . فقالت جازعة خائفة :

— « هل ركبَ البحر إلى غايةٍ من الغايات؟» فقال يبُثُّ فى رَوْعها الاطمئنان :

— « كلا يا آنسة وإنما هو فى بعض الضواحى يتسلَّمُ مقدارَ الصيد الجديد فقد يعود عند الظهر » .

فتنفَّست الفتاةُ الصُّعَداء ، وحدّق « هارڤر » فيها طويلاً وقال :

— « ألست يا آنسة صاحبةَ الأوراق الإسلندية ؟ » فقالت :

— « نعم يا سيِّدى » . فقال :

— « إذن أسمح لنفسى بأن أسألك ماذا تريدين من "جاك" فهو رجلٌ من رجالى » . فقالت :

— « إنها مسألة شخصيّة يا سيّدى . . . إننى . . . » فقاطعها « هارڤر » قائلاً :

— « ولكن تفضَّلى بالجلوس يا آنسة فعندى ما أحدثك به » .

فأطاعت الفتاة ، وجلست على أحد المقاعد ، وبقى « هارڤر » يَذْرَعُ الغرفةَ ذاهباً آيباً ثم قال :

— « أتعرفين " جاك " يا آنسة منذ زمنٍ طويل ؟ » فقالت :

— « منذ نحو شهر » . فقال :

— « قضى منها خمسةَ عشرَ يوماً بعيداً منك . أتعرفين إلى أين ذهب؟» فقالت :

— « نعم إلى " إسلندة " » . فقال :

— « ومَنْ قال لك ذلك ؟ » فقالت :

— « صديقه " بطرس " » . فقال :

— « أرى من واجبي إذن يا آنسة أن أحذرك من " جاك " » .

فتطلَّعت إليه مغيظةً محنقة ، فاستأنف هو حديثه وقال :

— « نعم إنه رجلٌ فظٌّ غليظ ، إنه قرصانٌ مخيف فما من بحارٍ من البحَّارة لا يرتجف منه رعباً وذُعْراً » .

فنهضت الفتاة عن مقعدها ثائرة وقالت :

— « وأنت . . . لا أريدُ أن أنعتك . . . تغتابه وتسبُّه . . . اعلم أنه رجلٌ كاملُ الصفات . . . ولسوف أتزوَّجه ولو كان وَحْشاً ضارياً . . . إني أكرهك يا سيِّدي » .

فانطلق « هارڤر » يقهقه ضاحكاً وقال :

— « سامحيني يا آنسة ، نحن الرجال نحبُّ المزاح . . . إنك ستكونين



خير زوجةٍ له . هيّا بنا » .

ولم تُفِق الفتاةُ من دهشتها إلا عندما ركبت هى و « هارفر » الترام إلى حيث كان « جاك » فروَى لها فى أثناء الطريق كل ما يعرف من شأنها وشأنِ الأوراق المالية التى فى حَوْزتها . فلمّا وصل بهما الترام إلى المكان المقصود ، ترجّلا وودّع « هارفر » الفتاة ودلّها على الموضع الذى يعمل فيه « جاك » ، فسارعت إليه فرأته واقفاً فى وسط جماعة من الرجال والنساء ، يضعون السمك فى أقفاص كبيرة ، ومن حولهم أكوامٌ من السمك من كل صنف ونوع ، ثم رأت فى يده دفتراً يسجّل فيه عَدَدَ الأقفاص فوق كل مركبة قبل أن تسير إلى محطة سكة الحديد . فأهابت الفتاةُ بشجاعتها ، ومرّت من بين الأقفاص حتى اقتربت منه وهو مديرٌ ظهره إليها ، فلمست كَتِفَه .

فالتفتَ فرآها ، فَسَرَتْ فى جسده رعدةٌ خفيفة تغلّب عليها وقال فى غِلْظة :

— « ماذا تريدين يا آنسة ؟ » فقالت :

— « أنْ أقولَ لك كلمة واحدة » . فقال وهو لا ينقطعُ عن مراقبةِ الرجال والنساء الذين يعبّئون السمك :

— « وما هى ؟ » فقالت :

— « بعتُ سنداتى » . فقال :

— « أبعتِ السندات فقط ؟ ولماذا لم تبيعى الأسهم ؟ » فقالت :

— « لم أحاول ذلك » . فقال :

— « وكم قبضتِ ثمنَ السندات ؟ » فقالت :

— « تسعين ألف فرنك » . فقال وقد خطّت على شفتيه ابتسامةٌ خفيفة :

— « حسن جداً » .

ثم سكت وسكتت ، وتابع هو عمله فى مراقبة العاملين ، فقطعت الفتاة الصمت الرهيب وقالت :

— « أنفقتُ منها خمسة آلاف » . فقال :

— « حسن » . فقالت :

— « اشتريتُ بها ملابس لعُرْسى فإننى سأتزوَّج » .

فلم يجب فى هذه المرة بشىء بل لزم الصمت فقالت له :

— «ألا تريد أن تعرف من الزوج الذى اخترتُه ؟ » فقال :

— « لا يهمنّى ذلك » .

فأمسكتْ بذراعيه، واقتربت منه ، ووضعت رأسها على كَتِفِه ، فنظر إليها فرأى شفتيها مفترَّتَيْنِ عن ابتسامةٍ حلوة جميلة، ورأى عينيها

شاخصتين إليه وهما مبلَّلتان بالدموع ، وسمع صوتَها يقول له بلهجةٍ عذبة كلُّها رقّةٌ وحُبٌّ وحنان :

ــ «هل تَرْضى أن أكون عروسَك يا " جاك أڤريل " ؟ »



رقم الإيداع	١٩٩٣ / ١١٠٥٧
الترقيم الدولى	ISBN 977 - 02 - 4313 - 2

١ / ٩١ / ٣٨١

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

